المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
مركز البحوث



بحوث أسبوع الشيخ

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

الجزء الثاني

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الموضوع	الصفحة

أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب افريقيا

للدكتور مصطفى مسعد

أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ

بكلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

ظهــور الدعــوة :

يمثل القرن الثاني عشر للهجرة نقطة تحول هامة في تاريخ العالم الإسلامي بعامة وتاريخ الجزيرة العربية بخاصة . ذلك أن العالم الإسلامى في ذلك العصر يعاني من الانحطـاط والضـعف والتدهـور في كثـير من نواحـي الحياة الـدينية والسياسية والاقتصادية، بسبب تفشي الجهل ووقوعه فريسة التخلف العلمي والجمـود الفـكري، والانحراف عن جادة الإسـلام الصـحيح، وتسرب الكثـير من أنـواع الشرك والبـدع والخرافات[1]، حتى قيض الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة الإسلامية من ينهض من قلب الجزيرة العربية ليدعو الى النهوض بالإسلام وإصلاح أحوال المسلمين، بتطهير الإسلام وتخليصه مما علق به من أدران الوثنية وغيرها من مظاهر الشرك . وصاحب هذه الدعوة المباركة هو الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ).

لقد أدرك الشيخ ـ رحمه الله ـ أن مصدر هذا التدهور والانحلال ابتعاد المسلمين عن الإسلام الصحيح ، حتى لقد انتشرت أنواع خطـيرة من الشرك ودعـوة الأحياء والأموات من الأولياء والصالحين، وإشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذور والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق لله وحده لا شريك له، بل النزول الى تقديس الجمادات كالأحجار والأشجار والاعتقاد في قدرتها على جلب النفع ودفع الضر[2].

نهض الشيخ ـ رحمه الله ـ بعبء الدعوة بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار السلف الصالح ، ومقاومة البدع والخرافات التي ألصقت بالإسلام، وبمعنى

---

(١) حسين بن غنام: تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام) تحرير: ناصر الدين الأسد ص ١٠ ـ ١٩.

(٢) محمد بن عبدالوهاب : القسم الخامس من مؤلفات الشيخ (الرسائل الشخصية) نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ٣٦.

آخر الرجوع بالإسلام الى ما كان عليه زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه رضي الله عنهم. ولقد بدأ الشيخ دعوته الى الإصلاح متبعا فى ذلك أسلوب الإسلام نفسه، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكتابة الرسائل وإلقاء الخطب، وعقد حلقات الدرس لتلاميذه الذين يتلقون عنه العلم في مختلف فروع المعرفة ، وعنيت الدعوة بتصحيح العقيدة وتحقيق التوحيد، وقد استأثرت معالجة هذه الموضوعات بالكثير من مؤلفات الشيخ وكتاباته ورسائله. كما عني بشرح العقيدة الصحيحة ودعمها بالحجة والدليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأقوال صالحي الأمة وأفعالهم ، وذلك بإخلاص العبادة لله رب العالمين، ونبذ الشرك والبدع والخرافات، والإقلاع عن جميع المحرمات،وبيان معنى الإسلام الصحيح قبل حدوث الشرك وتسرب البدع، وتفسير معنى « لا إله إلا الله» ، وما اشتملت عليه من نفي العبادة عما سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له فى ربوبيته ولا في ألوهيته، وبيان شرائع الإسلام.[٣].

لم تسلم الدعوة من حرب شنها عليها بعض الحكام الضالين، وبعض مدعي العلم كذلك، ويمثل اتفاق الدرعية (١١٥٧هـ) بين الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وبين أميرها الإمام محمد بن سعود ـ رحمهما الله ـ بداية مرحلة هامة في تاريخ الدعوة السلفية؛ فقد تم تعاهد وتعاقد بينهما على إظهار دين الله والجهاد في سبيله . وبمعنى اخر كانت هذه المعاهدة التي تمت بين الإمامين عهدا على نشر الدعوة السلفية وتوحيد المسلمين تحت راية الإسلام.

وبذا بدأ الجهد الجماعي للدعوة ودخولها مرحلة الجهاد. وقد أصبحت بذلك مدينة الدرعية مركز الدعوة السلفية ومنطلقها. فما أن فرغ الإمام الشيخ من أمر الدرعية نفسها وإقبال أهلها على دعوته ، حتى بعث برسائله الى أمراء وأهالي البلاد المجاورة يدعوهم فيها الى العودة الى طريق الإسلام الصحيح كما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وتطبيق

(٣) محمد بن عبدالوهاب، القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، «العقيدة والآداب الاسلامية» نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.

جميع أحكامه وإقامة شعائره . فمنهم من استجاب لدعوة الشيخ ودان له بدعوة الاسلام الصحيح، فثاب الى الرشد، وهجر البدع، وغدا من أنصارها والداعين الى نشرها ونصرتها، ومنهم من استكبر وأبى وخالف. ولما رأى الشيخ من معظمهم الإعراض عن الدعوة ومناوأتها، بدأ فى تكتيل القوى الحربية وإعلان الجهاد في سبيل إقرار هذا الدين على حقيقته، وتهيئة الجو الصالح لنشر الدعوة، وتطبيق منهج الله في جميع شئون الحياة.

ولقد أصبح من الضروري مواجهة أعداء الدعوة ـ حيثما كانوا ـ وتجريد الحملات الحربية عليهم للدفاع عن الدعوة وإفساح المجال أمام الراغبين فى الانضواء تحت لوائها للرجوع الى الحق وقطع دابر الفتنة . فبدأت سلسلة من المعارك الحربية المتصلة ، وانتصرت كلمة الحق، وشهد الامام الشيخ ـ رحمه الله ـ فى أواخر حياته رايات التوحيد خفاقة على معظم أقاليم الجزيرة العربية التى شهدت تحولا خطيرا في حياتها الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية تحت لواء الدولة السعودية. والحق أن الشيخ الإمام ـ رحمه الله ـ قد شهد ثمار دعوته وجهاده وجهوده الصابرة بمولد المجتمع الإسلامى الذى يريده، والذى أيقظت الدعوة عقليته الاسلامية بعد سباتها، فصفت عقيدته بعد أن كدرتها الخرافات والبدع والشركيات والوثنيات، فتحققت بذلك أهداف دعوته ، بقيام مجتمع إسلامى متكامل تحت لواء دولة إسلامية تؤمن بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهجا، وتطبق أحكامه في كل شئونها(٤).

انتشـــار الدعـــوة:

لم يقتصر أثر الدعوة السلفية في الجزيرة العربية فحسب، بل امتد هذا الأثر الى بقاع كثيرة من العالم الإسلامي، وذلك على الرغم من محاولات خصوم الدعوة من تشويه مبادئها، حتى أطلقوا عليها اسم: «المذهب الوهابي» ليدللوا على أنها مذهب جديد على الإسلام، ولقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على نجاح الدعوة وانتشارها ، فقد كان لشدة إيمان صاحب الدعوة بما يدعو اليه من الحق، وقوته في مواجهة خصوم الدعوة حتى

(٤) عبدالله بن يوسف الشبل : تاريخ نجد والدولة السعودية ـ طبع بمطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض، ص ٦٩ ـ ٨٣.

جمع حولها الأتباع والأعوان والتلاميذ الذين كانوا عدتها ودعامتها، فضلا عن القوة السياسية ممثلة فى أنصار الدعوة من آل سعود منذ اتفاق الدرعية «١١٥٧هـ» أكبر الأثر في التمكين للدعوة، وإبلاغ صوتها الى أقصى المشرق وأقصى المغرب. ومن هنا: تتجلى قوة الدعوة في الجمع بين الأمور السياسية والدينية ، فقد حمل آل سعود لواء الجهاد في سبيل نصرة الدعوة في حياة الشيخ وبعد وفاته، وتوحدت على أيديهم معظم أقاليم الجزيرة العربية بما فيها إقليم الحجاز حيث المعبر الذى انتقلت الدعوة عن طريقه فى موسم الحج. فقد أتاح دخول الحجاز في حوزة الدولة السعودية الأولى في العقدين الثاني والثالث من القرن الثالث عشر للهجرة (١٢١٧ ـ ١٢٢٦ هـ) لحجاج بيت الله الحرام من جميع البلاد الإسلامية التعرف على حقيقة الدعوة السلفية،والالتقاء بدعاتها،ومناقشتهم فيما يدعون اليه، حتى ازدادوا بها إيمانا وتشبعوا بمبادئها، وبخاصة حينما شهدوا أحوال الحجاز في عهد أنصار الدعوة من آل سعود، وما كان يسوده من أمن واستقرار وتطبيق لجميع مبادئ الإسلام، فحملوها الى بلادهم ، ودعوا الناس اليها، فانتقلت هذه المبادئ الإصلاحية الى سومطرة والهند فى قارة آسيا، وإلى ليبيا وبلاد السودان الغربي في قارة افريقية، وكان هدف دعاتها في كل مكان يحلون به هو محاربة الفساد والقضاء على البدع والخرافات ، وتصحيح العقيدة الدينية، والعودة بالإسلام الى ما كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم محاولة إقامة حكومة صالحة على أساس ديني، تحكم بالإسلام عقيدة ومنهج حياة(٥).

الإسـلام وغرب افريقية :

ينبغي قبل الحديث عن الدعوة في غرب افريقية، أن نشير فى إيجاز الى امتداد الإسلام وانتشاره في هذه الأقاليم الافريقية.

المقصود ببلاد غرب افريقية هنا: البلاد التي كانت تعرف قديما باسم السودان الغربي والسودان الأوسط، وتشمل مساحة جغرافية تمتد من مصب نهر السنغال في الغرب إلى

(٥) عبدالله بن يوسف الشبل: المرجع نفسه ص ٨٩.

الحدود الغربية لبلاد دارفور في سودان وادى النيل في الشرق، وتقع بين الصحراء الكبرى في الشمال، وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب .

ولقد تأثرت هذه الأقاليم بموجتين إسلاميتين، تتجلى أولاهما فى تسرب الإسلام وانتشاره فيها انتشارا بطيئا استغرق حوالى سبعة قرون ابتداء من القرن الخامس الهجرى (١١ م)، وجاءت الموجة الثانية في أعقاب حركة الجهاد التي اضطلع بها الفلان في القرن الثالث عشر الهجرى (١٩م).

أما الموجة الأولى، فكانت طلائعها من قبائل الملثمين (الطوارق) الذين اضطلعوا بنشر الإسلام في غرب افريقية، عن طريق التسرب السلمي والاستيطان في هذه الأقاليم، أو عن طريق الغزو والفتح. وعلى الرغم من أن حركة المرابطين بزعامة قبيلة جدالة في القرن الخامس الهجرى (١١م) كانت قصيرة العمر فإنهم نجحوا في إزالة أكبر عقبة كانت تحول دون تقدم الإسلام جنوبا، فاضمحلت على أيديهم مملكة غانة الوثنية، ثم اعتنق ملوكها الإسلام وأخلصوا له، وعملوا على نشره بوسائلهم، وتحولت غالبية شعب غانة الى الإسلام . واستطاع دعاة المرابطين أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال، وفي الأقاليم الواقعة بين السنغال والنيجر. وتم فى عهد المرابطين تأسيس مدينة «تنبكت»، وامتداد الاسلام الى مدينة (جنى)، وقد غدت هاتان المدينتان السودانيتان أعظم مركزين للثقافة الاسلامية، وسوقين هامتين للتجارة السودانية على ضفاف النيجر. وفي هذه المرحلة كذلك، ظلت الموجة الإسلامية الأولى قوية، بيد أن موجهيها لم يصبحوا من البربر، بل من أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام، ونالوا نصيبا من الثقافة الاسلامية، سواء أكانوا من السودانيين الخلص، أم من السودانيين الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر، وأفادوا من خبراتهم السابقة في ميادين السياسة والحرب، فأسسوا سلطنات إسلامية واسعة مثل: مالي، وسنغى ، وبرنو، والكانم، وإمارات الحوصة في شمال نيجيريا، حيث قامت سبع إمارات هي: دورا، وكانو، وزاريا، وغوبر (جوبير) ، وكتسنا، وبيرام، ورانو.[٦]

(6) Boville, E.A.: The Golden Trade of the Moors, P. 220

ولقد كان معظم إمارات الحوصة على الوثنية حتى القرن الثامن الهجرى (١٤م)، حين وفدت اليها تيارات إسلامية من الغرب على أيدى فقهاء مالي، ومن الشمال على أيدى فقهاء المغرب. أما التيار الثالث فمصدره بلاد برنو ومصر، وثم تيار إسلامي رابع وفد اليها مع تجار جنى وتنبكت المترددين على إمارتى كانو وكتسنا أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشر للهجرة. (١٥ ـ ١٦م)، وذلك إبان انتعاش تجارة إمارات الحوصة، واستقرار أولئك التجار في هذه البلاد، والقيام على تدريس الدين الإسلامي ونشر مذهب مالك[٧]. وساعد على ازدياد قوة التيار الإسلامي في القرن العاشر الهجـرى (١٦ م) خضوع إمارات الحوصة لسلطنة سنغى الإسلامية.

لكن على الرغم مما بذل من جهود لنشر الإسلام في بلاد الحوصة، فإن الإسلام لم يغلب على هذه البلاد، وظلت بها جاليات وثنية حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (١٩م)[٨]، ولم يلبث بعض أمراء الحوصة أن تحولت حماستهم للإسلام والثقافة الإسلامية الى فتور تام، ولم يعد يسمع شيء عن نشاط إسلامي خلال القرنين الحادى عشر والثاني عشر (١٧، ١٨م) ـ حتى قيام الفلان بثوراتهم الإصلاحية فى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩م).

يضاف الى هذا أن الغزو المراكشي في غرب أفريقية في القرن العاشر الهجرى (١٦م) والقضاء على سلطنة سنغى الإسلامية، قد أدى الى تدهور أحوال البلاد الاقتصـادية والثقافية والدينية، بسبب فساد الأمن واضطراب سير التجارة السودانية عبر الصحراء الكبرى، وتشريد علماء تنبكت، واضمحلال جامعاتها. يقابل هذا ازدياد نفـوذ الممالك الوثنية مثل سيغو (سجو)[٩]، وخضوع الباشوات الذين خلفهم الغزو المراكشي لنفوذ ملوك سيغو الوثنيين. ثم ان الجامعات الاسلامية القليلة المبعثرة فى الأقاليم الـوثنية

---

(7) Waldman, M.R. "The Fulani Fihad". Journal of African History, Vol. 1v 1965. P.333.

(8) Hunwjick, J.O.: Religion and state in the Songhay Empire, "Islam in Tropical Africa, J.M. Lewis, ed. P. 305.

(9) Wallis, J.R.: "Jihad Fi Sabil Allah, its doctrinal basis in Islam and some aspects of its avaluation in 19th Century West Africa". Journal of African History, V111, no. 3. 1967, P. 400.

عوملت معاملة أهل الذمة؛فقد فرضت عليهم الجزية ، وحرموا من تطبيق الشريعة الاسلامية ، وخضعوا لقوانين البلاد القائمة على العادات الوثنية. واستمرأ معظم أمراء المسلمين ـ وقتذاك ـ ومن يلوذ بهم من النفعيين الحياة في ظل هذا الركود ، ماعدا نفر من أهل الصلاح والتقوى الذين يتطلعون الى ظهور مصلح يأخذ بأيدى المسلمين ، وينقذ الدين الإسلامى من وهدته.[١٠].

الحركات الإصلاحية فى بلاد الحوصة.

تحقق هذا الإصلاح المرتقب على أيدى الفلان منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (١٩م). وهنا تبدأ الموجة الإسلامية الثانية التي بلغت من القوة في خلال قرن واحد حدا يفوق ما بلغته الموجة الاسلامية الأولى في خدمة الاسلام والثقافة الاسلامية في غرب افريقية خلال سبع قرون.

ولقد امتدت اليقظة الاسلامية التى انبعثت من قلب الجزيرة العربية على يد الشيخ المجدد الامام محمد بن عبدالوهاب الى بلاد الحوصة بغرب افريقية أول القرن الثالث عشر الهجرى، اذ وجدت الدعوة السلفية طريقها الى هذه الأقاليم التي ما كان لها أن تبقى بعيدة عما يعتمل ـ وقتذاك ـ في قلب الجزيرة العربية وغيرها من الأقطار الاسلامية التي تأثرت بالدعوة السلفية ، لصلاتها القوية بها جميعا ولاسيما في موسم الحج.

كان رواد نشر الدعوة السلفية ودعاتها فى غرب افريقية من قبائل الفلبى (الفلان) الذين أخذت أفواجهم منذ القرن السابع الهجرى (١٣م) تفد من مواطنهم الأصلية بإقليم فوتاتورو بالسنغال الى بلاد الحوصة في شمال نيجيريا . وقد انقسم المهاجرون من الفلان إلى فريقين: فريق سكن المدن وعرف باسم «فلانى جدا»، أى: المختلطين أو المهجنين، لاختلاطهم بقبائل الحوصة عن طريق المصاهرة[١١]، وهؤلاء كانوا أول من

(١٠) محمود كعت التنبكتي: تاريخ الفتاسن في أخبار البلدان والجيوش، وأكابر الناس ص ١٧.

(11) Fage , O.G.D.: An Introduction to the History of West africa . P .35

اعتنق الإسلام في بلاد الحوصة. أما الفريق الآخر: فمن البدو الذين لم يختلطوا بقبائل الحوصة، وعرفوا باسم : «بروروجي»، أي،رعاة البقر، واحتفظ هؤلاء بدينهم الوثنى. وفى أواخر القرن الثاني عشر الهجرى (١٨م) غدا الفلان جدا المسلمون عنصرا هاما بين سكان بلاد الحوصة، ووصل كثير منهم إلى أعلى المناصب بفضل مواهبهم واستعدادهم الذهني.[١٢].

عثمان بن فودى والدعوة الى الإصلاح:

وبطل قصة انتشار الدعوة السلفية في غرب افريقية هو الشيخ عثمان بن فودى (دان فوديو)[١٣]. ينتسب هذا المصلح الى أسرة من الفلان انطلقت في ركاب المهاجرين منهم حتى دخلت سهول السودان الغربي وأقامت في بلاد الحوصة، وفي هذه البيئة ولد عثمان بن فودى سنة ١١٦٩هـ في قرية طفل من أعمال امارة غوبر (جوبير) . وقد نشأ في بيت علم وفتوى. اذ اعتنق أجداده الإسلام من زمن بعيد، واشتغل أبوه وأفراد اسرته بالعلم، وتلقى عثمان بن فودى دروسه الأولى على يد أبيه محمد، وأمه حواء، وجدته رقية[١٤]. شب عثمان بن فودى في هذه البيئة المتدينة، ودرس علوم العربية وعلوم القرآن والحديث والفقه على أيدى علماء عصره في بلاد الحوصة، وفي اغاديس[١٥]. ولعل أقوى أساتذته تأثيراً فيه هو الشيخ جبريل بن عمر[١٦].

ولما بلغ عثمان بن فودى مبلغ الرجال، وأوتي حظا من النضوج العقلى والفكرى، هاله حال المسلمين في بلاد الحوصة، وما كانوا عليه من تخلف وانحراف عن جادة الاسلام الصحيح ، وانتشار البدع والخرافات والوثنيات، ثم رحل عثمان الى الحجاز لأداء فريضة الحج، فتأثر بالدعوة السلفية التي كانت آخذة في النمو والانتشار في الوقت الذى زار فيه

(12) Boville, E.A.: The Golden Trade of the Moors, P.224.

(١٣) عرف باسم دان فوديو، أي: ابن النقية، واسمه عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح. ومن الالقاب التي تلقب بها: نور الزمان، ومجدد الاسلام، والشيخ.

(١٤) آدم عبدالله الألورى: الاسلام في نيجيريا ص ٣٥.

(١٥) أغاديس: مدينة تقع بالقرب من طريق القوافل الممتد بين أقاليم السودان الأوسط وبلاد المغرب.

(١٦) آدم عبدالله الألورى: المرجع نفسه ص ٣٠ ـ ٣١.

مكة[١٧] حين دخولها في صورة الدولة السعودية الأولى ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولقد خالط عثمان بن فودى دعاة السلفية من أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب واستمع اليهم وتشرب مبادئ الدعوة السلفية وتحمس لها، فأيقظت في نفسه رغبة ملحة فى إصلاح أحوال المجتمع في بلاده، ومحاربة البدع والخرافات والوثنيات التي تفشت في بلاده، حيث اختلطت تعاليم الإسلام بالعادات الوثنية، وارتد بعض المسلمين عن دينهم.[١٨] ولعل خير ما نستشهد به في هذا المقام ماذكره الإمام محمد بللو من الشيخ عثمان بن فودي في كتابه« إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» عن فشو الفساد والبدع والشركيات في مجتمع الحوصة، إذ يقول: «وقد وجدت في هذه البلاد (بلاد الحوصة) من أنواع الكفر والفسوق والعصيان أمور فظيعة، وأهوال شنيعة، طبقت هذه البلاد وملأتها حتى لا يكاد يوجد في هذه البلاد من صح إيمانه وتعبد الا النادر القليل، ولا يوجد فى غالبهم من يعرف التوحيد، ويحسن الوضوء، والصلاة، والزكاة، والصيام، وسائر العبادات، فمنهم كفار يعبدون الأحجار والجن، ويصرحون على أنفسهم بالكفر، ولا يصلون، ولا يصومون، ولا يزكون، ويسبون الله ويقولون في حقه ما لا يليق في جنابه الأعلى. وهؤلاء غالب عامة السودان الذين يقال لهم : «ما غنداوا»، وبعض عتاة الفلاتيين والتوارك. ومنهم قوم يقرون بالتوحيد، ويصلون، ويصومون، ويزكون من غير استكمال شروط بل يأتون فى ذلك كله بالرسم والعلامة، مع انهم يخلطون هذه الأعمال بأعمال الكفر الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وبعضهم من قبل نفسه ....

وغالب ملوك هذه البلاد وجنودهم وأطبائهم وعلمائهم من هذا القبيل. ومنهم قوم يقرون بالتوحيد، ويصلون ويصومون، ويزكون من غير استكمال شروط كما مر، مع أنهم مقيمون على عوائد ردية وبدع شيطانية ، ومنهم منهمكون في المعاصي الجاهلية متأنسون بها، جارون فيها مجرى المباحات، حتى كأنها لم يرد فيها نهى، وهى خصال كثيرة أقاموا عليها، وهؤلاء أكثر عامة الفلاتيين وبعض مسلمي السودانيين (الحوصة). إذ قد مر أن غالبهم كفار بالأصالة وبعضهم بالتخليط . ومنهم قوم عارفون بالتوحيد كما ينبغي،

---

(١٧) أرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ص ٣٦٠، ٣٦٢.

(١٨) آدم عبدالله الألورى : المرجع نفسه ص ٣١.

محسنون للوضوء،والغسل،والصلاة،والزكاة،والصيام بذلك كما ينبغي ، وهؤلاء النادر القليل[١٩].

ويضيف آدم عبدالله الآلورى ـ أحد علماء نيجيريا ـ الى ذلك قوله: «لما انتشرت البدع بين اللمعاء ودب الفساد في نفوس المسلمين وعظموا الأشجار والأحجار ونسبوا اليها الرزق والولد والخير والشر، وتعمّق الملوك في الجور والطغيان، حتى اذا مرض أحدهم ذبح عبدا أو أمة له ليفديه من الموت، تلك هى الأشياء التي أنهضت نية ابن فودى للقيام بالدعوة الى إخماد البدع الشنيعة وإحياء الشريعة».[٢٠].

وفي سنة ١٢١٥هـ بدأ عثمان بن فودى الدعوة الى الإصلاح، كما بدأ الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته: دعوة الى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويبدو من منهجه فى الإصلاح العودة بالإسلام الى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ فأخذ يدعو الى إحياء الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة وإجماع السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم.

ولما زاد عدد أتباع الشيخ عثمان ومريديه، رأى أن ينتقل الى المرحلة الثانية من الدعوة، وفكر في الاتصال بأحد الملوك ليشد من أزره، فلجأ الى أقوى ملوك الحوصة ـ وهو وقتذاك ـ الملك نافتا (ملك غوبر) ، وشرح له الإسلام الصحيح وطلب اليه إحياء معالم الدين، وإقامة العدل بين الناس . فاستجاب له ـ أول الأمر ـ وأسند اليه الفتوى والإرشاد بمجلسه وديوانه.[٢١] غير أن بعض مدعي العلم الحاقدين ، قاموا يعيرونه لاتصاله بالملك ويتهمونه بالرياء والسعي الى الجاه والسلطان، ووشوا به عند الملك.

(١٩) محمد بللو بن عثمان بن فودى: انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طبع دار الشعب ، القاهرة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٢٠) آدم عبدالله الألورى : الاسلام في نيجيريا ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢١) آدم عبدالله الألورى، نفس المصدر ص ٣٧.

ومنهم من أنكر عليه بعض أقواله وأفعاله،[٢٢] فوقعت بينه وبين الملك جفوة سافر بسببها الشيخ إلى بلاد زمفرة وكبى، حيث قضى خمس سنوات داعيا إلى الإسلام، فاعتنقه على يديه عدد من الوثنيين، كما تاب على يديه عدد من المرتدين.

وهنا نترك القلم للإمام محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودى، ليلقى المزيد من الضوء على ما قام به والده المصلح الكبير من جهود لنشر الدعوة في مجتمع الحوصة، وما لقي في سبيلها من عداء الملوك ووقوفهم في وجه الدعوة فيقول: «...ثم انه لما برز هكذا، وكثر اتباعه من العلماء والعوام ، وتراسل الخلق الى الاقتداء به، وكفاه الله من ناوأه من علماء وقته، حتى نشر أعلام الدين، وأحيا السنة الغراء، فتمكنت في البلد أى تمكين ، نصب أهل الدنيا له العداوة من أمراء هذه البلاد، ..... وانما غاظهم ما يرون من ظهور الدين وقيام ما درس من معالم اليقين، وذهاب بقاء ما هم فيه من الضلال والباطل والتخمين، مع أن سلطنتهم.. مؤسسة على قواعد مخالفة للشريعة.... فلما أوضح الشيخ الطريق، واهتدى اليه أهل التوفيق.... وبقي أهل الدنيا من علماء السوء والملوك في طغيانهم يعمهون،... فجعل اولئك الملوك والعلماء يؤذون الجماعة (أتباعه)، ويعترضون كل من ينتسب الى الشيخ ، ... ولم يزل كل من تولى من ملوك بلادنا مجتهدا في إطفاء ذلك النور ويكيد بالشيخ وبجماعته،ويمكر بهم ويحتال في استئصالهم . وأما الأحكام فهم متجمدون على ما وجدوا أباءهم الأسلاف... وغالب أحكامهم مصادم للكتاب والسنة وإجماع الأمة ، كما هو معلوم مشهور، مع أنهم مفترون بأقوال وأفعال لا تصدر الا من كافر... ولم يرعنا الا إنذار أمير غوبر نافتا بثلاثة أمور: أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس الا الشيخ وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام الا وارثه من آبائه ، ومن لم يرث الاسلام فليعد الى ما وجد عليه آباءه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها. وهذا إنذاره فى الأسواق، كل ذلك سعى منه في مكيدتنا...»[٢٣].

لقد اعتنق الإسلام على يدى الشيخ عدد كبير من الوثنيين، وزاد الناس له أتباعا،

---

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) محمد بللو: انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٩٥ ـ ٩٧.

ورأى الملوك فيه خطرا ملحا ينتقص من سيادتهم ، ويحد من نزواتهم، ويؤلب عليهم رعيتهم.[٢٤].

ولما توفى الأمير نافتا، خلفه ابنه الأمير يونفا في حكم إمارة غوبر؛ وعلى الرغم من أنه كان تلميذا للشيخ عثمان، فقد كان لايقل عن أبيه انتصارا للوثنية. ورأى الأمير يونفا في ازدياد قوة الشيخ وكثرة أنصاره خطرا يهدد عرشه، فدبر مؤامرة لاغتياله، وأدى فشل الأمير في التخلص من الشيخ الى ازدياد عدد أنصاره وتلاميذه.

لقد أدرك الشيخ أنه لم يستطع أن يحقق هدفه بالفوز بمعاونة أمير من أمراء الحوصة، ومساندة القوة السياسية للدعوة : بل تعرضت دعوته للخطر بإصدار القرارات المساندة للوثنية من ناحية، ومحاولة القضاء عليه وعلى دعوته من ناحية أخرى.

وفي شتاء سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) خرج الشيخ صحبة فريق من أتباعه المخلصين مهاجرين الى بلدة جودو على أطراف الصحراء. ونادى الشيخ فى أنصاره معلنا الهجرة من دار الكفر الى دار الهجرة، غير أن أمراء الحوصة قابلوا عمل الشيخ وأنصاره بتعقبهم أينما ذهبوا، وقطع الطرق الموصلة اليهم، ونهب أموالهم والتهيؤ لحربهم. فلم يجد الشيخ بدا من إعلان الجهاد . واستجابت له عشائر الفلان من البلدين والرعاة ، وقدموا الى مهجره للانضمام الى جيشه، وتأييد دعوته، وبايعوه على الجهاد أو الموت، وطاعة الله ورسوله، كما بايعوه بإمرة المؤمنين (ساركيني مسلمي).[٢٥].

تزعم أمير غوبر المعارضين له، وسار لحربه ، وجاء اعلان الجهاد رسميا سنة ١٢١٩هـ (١٨٠٤م) بداية دور جديد في الحركة الإصلاحية ، هو دور الفتح والجهاد. فعقد الشيخ اللواء لأربعة عشر من أصحابه، وأحرزوا نصرا على أمير غوبر وحلفائه من الطوارق. وأثارت هزيمتهم الهلع والخوف في بلاد الحوصة، واستولى المجاهدون على إمارة زاريا سنة

(٢٤) حسن أحمد محمود: دور العرب في نشر الحضارة في غرب افريقية، المجلة التاريخية المصرية العدد ١٤، ١٩٦٨، ص ٩٤.

(25) Boville, E.A.: oP. cit. P. 225.

١٢١٩هـ (١٨٠٤م)، وإمارتي كانو وكتسنا سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م)، كما وقعت فى أيديهم عاصمة إمارة غوبر سنة ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م).

لقد كانت الحماسة الدينية تدفع أولئك المجاهدين الى طلب الشهادة، فتمكنوا في سنة ١٢٢٥هـ (١٨١٠م) من إخضاع إمارات الحوصة جميعها لنفوذهم.

رأى الشيخ عثمان بن فودى أن تشمل حركته الإصلاحية بلاد برنو (السودان الأوسط) لموالاة سلطانها للوثنيين ومساعدتهم ضد المجاهدين من أنصار الشيخ، فاستولوا على كثير من أقاليم برنو لمتاخمتها لبلادهم من جهة الشرق.

وهكذا تمت آخر مرحلة من مراحل الجهاد ، فتأسست دولة اسلامية شملت جميع إمارات الحوصة القديمة . ورأى الشيخ عثمان أن يترك شئون الحكم والإدارة لابنه محمد بللو، وأخيه الوزير عبدالله بن فودى، فقسم البلاد بينهما، وجعل ابنه محمدا على القسم الشرقي وعاصمته سكت (سكوتو)، وجعل أخاه عبدالله على القسم الغربى من الدولة، وعاصمته جواندو في اقليم كبى، أما الشيخ عثمان فانه آثر التفرغ للدراسة ونشر الاسلام وتفقيه الناس في الدين متخذا سكت مقرا له. ولما توفى الشيخ عثمان سنة ١٢٣٣هـ (١٨١٧م)، بويع ابنه محمد بللو أميرا للمؤمنين. وظلت الإدارة مزدوجة في عهده: القسم الشرقي: تابع لإدارة سكت، والقسم الغربى تابع لعبدالله فى عاصمته جواندو.

اختلف الباحثون في تقدير حركة الجهاد التي تزعمها عثمان بن فودى. فيرى البعض منهم : «ان الفلان اتخذوا الدين وسيلة لنيل عرض الدنيا، واستغلوه للتنكيل بأُمراء الحوصة الذى كانوا يضطهدونهم وينكرون عليهم حقوقهم » ويزعمون: «أن الجهاد حركة قومية لقبائل الفلان ـ مسلمين ووثنيين ـ موجهة ضد قبائل الحوصة وكبيرهم الأمير يونفا أمير غوبر الذى كان قرر القضاء عليهم، وبعد انتهاء الجهاد عاد الفلان والوثنيون الى حياة المراعي، على حين أن العلماء وزعماء الفلان ـ وعلى رأسهم الشيخ عثمان بن فودى ـ استغلوا الدين لطرد الحكام القدامى. واقتسام مناصبهم.[٢٦]»

(26) Hogbon, S. G.: Th Mohamedan Emirates of Nigeria P .110 .

غير أن هذا القول لا يتفق وما نعلمه عن طبيعة الجهاد وأهدافه. ذلك أنه كان محاولة صادقة للإصلاح وجهادا ضد الطغاة المستبدين، مهما كان جنسهم، بدليل أن الجهاد ضم بين الحوصة والفلان، وباستثناء القادة وأصحاب الألوية، فقد كان عدد المجاهدين من الحوصة لا يقل عن عدد المجاهدين من الفلان.(٢٧) وكان أحد أصحاب الألوية الأربعة عشر على الأقل من الحوصة(٢٨). ثم إن جميع الفلان في بلاد الحوصة لم يشتركوا في الجهاد مع الشيخ عثمان بن فودى، اذ حارب بعضهم في صفوف أمراء الحوصة، على حين وقف البعض الآخر موقفا محايدا. والكثيرون من سكان البلاد الذين رأوا في الجهاد إعلاء لشأن الدين ، انضموا لحركة الجهاد ضد بني جلدتهم، سواء أكانوا من الفلان أم من الحوصه.(٢٩).

لم تكن حركة الجهاد التي تزعمها الشيخ عثمان بن فودى موجهة ضد الوثنيين (الكفار) فحسب، ولكن ضد المرتدين والمستهترين من المسلمين الذين يخلطون أعمال الإسلام بأعمال الكفر.

ولقد واجهت حركة الاصلاح بزعامة الشيخ عثمان بن فودى مقاومة عنيفة من جانب أمراء الحوصة - كما رأينا - كما تعرضت لنقد بعض معاصريه من العلماء والفقهاء، وعلى رأسهم الشيخ محمد الأمين الكانمي من برنو ، والمعروف أن الشيخ الكانمي من أبرز علماء عصره ، وشخصية اسلامية فذة، ولكنه اتهم الشيخ عثمان باستغلال الدين لنيل عرض الدنيا. واذا كان الشيخ الكانمى قد سلم بوجهة نظر الجماعة الإسلامية من أنصار الشيخ عثمان، وضيقهم بخصومهم، فإنه لم يجد - فى رأيه - في هذا الضيق مايبرر قتالهم، على حين أن الشيخ عثمان اتهم الكانمي ومن لف لفه من العلماء والفقهاء بالنفاق لتحيزهم للملوك الحوصة ضد جماعة المسلمين.

ولقد أوضح محمد بللو - بتكليف من والده الشيخ عثمان بن فودى - في رسالة بعث

---

(27) Smith, M.G.: The Jihad, P. 409.

(28) Ibid .

(29) Allan Burns: History of Nigeria, P. 46.

بها الى الشيخ أمين الكانمي للرد على تشنيعاته ضد جماعة المسلمين من أنصاره، فيقول :
«... وأما ادعاؤك أن هذا الأمر والنهي أدانا الى ما يضر بديننا ، وهو الخروج على الامام بعد البيعة ، وقد ثبت عند كل حرمته، وإن طرأ عليه فسق، فإن كلامك هذا يتناول ملوك بلادنا هذه فلا عبرة به، كما ثبت عندنا من كفرهم بجهل الأصول ، والذبح للأحجار والأشجار وإنكار البعث والنشور. هذا ما نعرفه في بلادنا هذه ، وأما في بلادكم (برنو) . فليس لنا علم بأحوال أئمتها وسلاطينها إلا أنه إذا كان فيها قيام أميركم على إذابة المجاورين لكم من الفلانيين الذين هم الاقتداء بالشيخ (عثمان) حتى ألجأتموهم الى الهجرة تعصبا لملوك حوس (الحوصة) ونصرة لهم، ومعلوم أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ـ كما أن المؤمنين كذلك ـ علمنا بالضرورة أنه حينئذ راض بدينهم ، حين قام يواليهم دون المؤمنين ويظاهرهم عليهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر...»[٣٠].

كما أوضح الشيخ عثمان بن فودى منهجه في الجهاد في وثيقة أذاعها على جماعة المسلمين في بلاد السودان. وقد شرح فيها طاعة الجماعة لأمير المؤمنين ونوابه، وقواعد وجوب الهجرة على المسلمين والتفريق بين دار الاسلام ودار الحرب، والتعريف بالكفار ومن يجب على المسلمين قتالهم[٣١].

وفيما يلي بعض ما ورد في «وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الإخوان».

(٣٠) محمد بللو: انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣١) نشرت هذه الوثيقة مصورة بالزنكوغراف ومعها ترجمة انجليزية في:

Bivar, A.D.D.H.: The Wathigat Ahl Al -Sudan .A Manifests of the Fulani Jihad. Journal of African History, Vol. 11, no 2 , 1961. PP. 233 - 236.

بسم الله الرحمن الرحيم

«فاعلموا يا إخوانى أن الأمر بالمعروف واجب إجماعا، وأن النهى عن المنكر واجب إجماعا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة اجماعا، وأن موالاة المؤمنين واجبة اجماعا، وأن تأمير أمير المؤمنين واجب اجماعا، وأن طاعته وجميع نوابه واجبة اجماعا، وان الجهاد واجب اجماعا، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعا، وأن تأمير القضاة واجب اجماعا، وأن تنفيذهم أحكام الشرع واجب إجماعا، وأن حكم البلد حكم سلطانه إجماعا، ان كان مسلما كان البلد بلد إسلام، وأن كان كافرا كان البلد بلد كفر، وجبت الهجرة منه، وأن قتال الملك الكافر الذى لا يقول: «لا إلهٰ إلا الله» أصلا واجب أجماعا، وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعا، وأن قتال الملك الكافر، الذى لا يقول «لا إلهٰ الا الله» أصلا واجب إجماعا، وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعا، وأن قتال الملك الكافر، الذى لا يقول «لا إلهٰ الا الله» بسبب عرف البلد، ولم يكن يدع (كذا) الإسلام واجب إجماعا، وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعا، وان قتل الملك المرتد الذى لم يخرج عن دين الإسلام لكونه يدعي الإسلام ويخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر كمملوك حوس (الحوصة) غالبا واجب به إجماعا، وأن أخذ السلطنة منه واجب إجماعا، وأن قتال المهملين من المسلمين الذين لم يكونوا تحت بيعة أمير من أمراء المؤمنين واجب إجماعا اذا دعوا الى البيعة وأبوا حتى يدخلوا في البيعة... وأن قتال جماعة المرتدين واجب إجماعا، وأن أموالهم فيئ، وأن فى استرقاقهم قولين: المشهور المنع، ولا يعصى من فعله إن قلد من يقول بجوازه...».

لقد ترك ظهور هذه الحركة الإصلاحية آثارا عميقة في أقاليم الحوصة، وفضلا عن نجاحها في ميدان الجهاد وتوحيد جميع إمارات الحوصة المتنازعة وتأسيس دولة اسلامية على أنقاضها، فقد نجحت كذلك في مجال الجهود السلمية في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية. فقد انتشر الدعاة من تلاميذ الشيخ عثمان بن فودى في بلاد بوربا، ونجحوا فى

اجتذاب قبائلها الى الاسلام ، وتم على أيديهم تأسيس إمارة الورن الاسلامية وخضوعها لأمير المؤمنين فى سكت[٣٢].

علاقة حركة عثمان بن فودى الاصلاحية بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

بعد هذا العرض الهادئ لمراحل حركة الشيخ عثمان بن فودى الاصلاحية في غرب افريقيا أوائل القرن الثالث عشر للهجرة، ودراسة أهم المبادئ والأسس التي اعتمدت عليها هذه الحركة الاصلاحية ، يبدو مدى التقارب بينها وبين الدعوة السلفية التي نهض بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة.

والدعوة السلفية إن لم تكن تركت آثارا مباشرة على هذه الحركة وغيرها من الحركات الاصلاحية التي ظهرت بعدها ، فالواقع أنها قد مهدت لها وقوت من عزائم القائمين بها، اذ كانت بحق دعوة رائدة ، وجد فيها بعض أصحاب العزائم من المصلحين قدوة طيبة يقتدون بها، وأثرا صالحا ينهجون نهجه في جميع مراحل حركاتهم الإصلاحية ، كما كان للتقارب الزمنى بين الدعوة السلفية وبين حركة عثمان بن فودى الإصلاحية بصفة خاصة، فضلا عن وجود بعض أوجه التشابه بين ظروف كل من الإقليمين ـ الجزيرة العربية وغرب افريقيا ـ من حيث تدهور النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية قبل ظهور الحركتين، ووحدة الشعور بالحاجة الى الإصلاح، كان لهذا كله أكبر الأثر في التعجيل بميلاد حركة الشيخ عثمان بن فودى الإصلاحية . فقد كان نجاح الدعوة السلفية في تحقيق أهدافها من الحوافز التي شجعت ابن فودى وغيره من بعض زعماء الإصلاح على الأخذ ـ من قريب أو بعيد ـ بالمنهج الذى اتبعه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته.

وتكاد تجمع بعض المصادر على أن الشيخ عثمان بن فودى قد حج الى بيت الله الحرام، والتقى ببعض رجال الدعوة السلفية حين خضوع الحجاز للدولة السعودية الأولى

(٣٢) آدم عبدالله الألورى: الاسلام في نيجيريا ص ٤٦ ـ ٥٢.

خلال الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجرى، وتشربه مبادئ الدعوة السلفية ـ على ما سبقت الاشارة اليه ـ ولو أن البعض ينكر ذهاب الشيخ عثمان بن فودى الى مكة أصلا ، على حين يعترف أولئك المنكرون بأن أستاذ الشيخ عثمان بن فودى، وهو الشيخ جبريل بن عمر قد أدى فريضة الحج مرتين ، والتقى ببعض رجال الدعوة السلفية وتأثر بمبادئها.[٣٣]. وسواء صح خبر أداء الشيخ عثمان بن فودى فريضة الحج أم لم يصح، فالواضح أنه تلقى الدعوة السلفية سواء بالمباشرة من منبعها الأصلى على أيدى دعاتها في الحجاز ، أم بالواسطة على يد أستاذه جبريل بن عمر، ومما يقوى هذا الدليل التشابه الواضح بين ملامح الدعوة السلفية وحركة عثمان بن فودى الاصلاحية التي لم تشبها شوائب صوفية ، فكلا الدعوتين تلتقيان قي :

أولا : تحقيق التوحيد، وتطهير العقيدة مما شابها من أدران الشرك كالاعتقاد في قدسية بعض الأرواح أو الأشجار أو الكهوف أو الآبار ، وتقديم القرابين الى الجن لإبعاد أذاه، وزيارة قبور الأولياء والصالحين بقصد نيل شفاعتهم.

ثانيا : الدعوة الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، وآثار السلف الصالح، ومحاربة البدع[٣٤]. وللشيخ عثمان بن فودى في هذا المجال أعمال كثيرة توضحها دعوته في دروسه وفي كتبه ومؤلفاته، وله في ذلك: كتاب «إحياء السنة».

ثالثا : اتخاذ الجهاد في سبيل الله وسيلة لنشر الدعوة الاسلامية بين الوثنيين الذين يصدون عن سبيل الله، والمرتدين عن الاسلام، ومن حاد اسلامهم عن الطريق الصحيح، ويخلطون أعمال الاسلام بأعمال الكفر ويوالون الكفار دون جماعة المسلمين.[٣٥].

---

(33) Boville, E.A. The Golden Trade of the Moors.

Fage .D.G.D. op. c.t.

(٣٤) راجع ما سبق هنا، وانظر محمد بللو، نفس المصدر ص ٥٨ ـ ٦٠، آدم عبدالله الألورى، نفس المرجع، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٣٥) انظر : وثيقة أهل السودان فيا سبق هنا، ص ١٨ ومحمد بللو، نفس المصدر ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

وقد أدت حركة الجهاد هذه الى القضاء على الإمارات المتنازعة واتحادها في ظل دولة إسلامية واحدة تطبق الاسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة وتقيم شعائر الاسلام ، مما يذكر بالجهاد المسلح الذى نهض به الأئمة السعوديون في سبيل نشر الدوة السلفية ، فأقاموا الدولة السعودية الأولى التي استطاعت أن توحد معظم أقاليم الجزيرة العربية في ظل حكومة واحدة ، تطبق مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب . وقد ظلت هذه المبادئ متأصلة في نفوس أتباعها حتى الدولة السعودية الحالية التي أمكن لمؤسسها المرحوم الملك عبدالعزيز استعادة ملك آبائه وأجداده، وتأسيس المملكة العربية السعودية القائمة على أساس ديني سلفي؛ ومن ثم كان نجاح الدعوة السلفية فى إقامة دولة اسلامية مستقلة من أكبر الدوافع لقيام دول اسلامية متأثرة بالدعوة السلفية التي أصبحت أساسا لبناء كيانها الديني والسياسي والحضاري، ومن أبرزها دولة (سكت الاسلامية) فى غرب افريقيا.

رابعا: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصل من أصول الاسلام ورد الحث عليه فى الكتاب والسنة، وكما قامت الدعوة السلفية بتحقيق هذا الهدف الاسلامى بتطبيق أحكام الاسلام وإقامة حدوده، وتعيين قضاة للفصل في الخصومات بين الناس، وإحياء نظام الحسبة، وتنظيم بيت مال المسلمين، نرى أن الدولة الاسلامية التي أقامها الشيخ عثمان بن فودى في غرب افريقيا تضع ـ أيضا ـ النظام الاسلامى للإدارة بإحياء نظام البيعة، وتعيين العمال لحكم الأقاليم، وإحياء نظام الوزارة والحسبة والقضاء الإسلامى.

خامسا: وكما كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب سببا في إيقاظ الحياة الفكرية بعد جمودها فترة طويلة من الزمن، وإثارة الجدل بين أنصار الدعوة وخصومها واجتهادهم في البحث والتحصيل العلمي، مما أدي الى قيام يقظة اسلامية ، ونشاط علمي ظهرت آثاره فيما خلف الشيخ الامام من تراث إسلامى ضخم يتمثل في رسائله وبحوثه ومؤلفاته العديدة في مختلف العلوم الاسلامية، وذلك فضلا عما قام به أبناؤه وتلاميذه من انتاج علمى لا يزال يثرى المكتبة العربية الاسلامية بالعديد من المؤلفات . كذلك أشعلت حركة الاصلاح التي قادها الشيخ عثمان بن فودى في غرب افريقيا يقظة فكرية هائلة،

وكما لقيت الحركة الاصلاحية معاونة وتعضيدا، فقد واجهت كذلك معارضة شديدة في الداخل والخارج مما أثار الجدل حولها وأدى الى قيام نهضة فكرية تجلت آثارها فيما خلفته من تراث عربي إسلامي يتمثل في عدد ضخم من المؤلفات في شتى العلوم الإسلامية بأقلام بعض زعمائها وقادتها وتلاميذهم في شكل كتب أو رسائل ، وجميعها مكتوبة باللغة العربية، وعلى الرغم من أن الجانب الأكبر من هذا التراث الاسلامى الضخم لا يزال مبعثرا وحبيس كثير من مكتبات نيجيريا والغرب الأوربى، ينتظر جهودا مخلصة للدراسة والبحث، فمما لا شك فيه أن هذا التراث الإسلامى قد أدي دورا هاما في دعم الحركة الإسلامية واتساع رقعة الإسلام في هذا الجزء من افريقيا خلال القرن الثالث عشر وصدر القرن الرابع عشر للهجرة.

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
وأصداؤها في فكر محمد إقبال

للدكتور محمد السعيد جمال الدين

الأستاذ المشارك بجامعة عين شمس بالقاهرة

وكلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

يحظى الشاعر والمفكر الإسلامى محمد إقبال[1] بشهرة واسعة وتقدير كبير فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، ولا غرو فقد صرف إقبال كل همه فى إزالة الأوهام التى علقت بالفكرة الإسلامية ، ونذر حياته كلها فى سبيل إحياء روح الإسلام وإصلاح مسار الأمة الإسلامية على طريقها نحو الله سبحانه وتعالى..

وكان إقبال قد رأى أن معظم المفاسد التى تواترت على وجدان الفرد المسلم فأبعدته عن روح الإسلام وعن منهج الإسلام ـ إنما تواترت عليه من طريق الشعر، فقد اتخذ الصوفية الشعر وسيلة لبث أفكارهم وآرائهم الهدّامة في النفس المسلمة، فتدفق ينبوع الشعر الصوفي في انسياب حاملا معه ـ الى نفوس المسلمين ـ أفكار وحدة الوجود والاستسلام ونكران الذات، الأمر الذى أدى بهؤلاء الذين ورثوا حضارة متألقة على الدوام لا يعتريها القدم أبدا ـ أدى بهم الى التواكل وسقوط الهمم وازدراء العمل والقعود عن تسخير الكون. ولقد تطاول العمر على الأمة الإسلامية وهي على هذا الحال فتخلفت عن المهمة التى وكلها الله اليها ، وهي الأخذ بزمام العالم كله نحو الرقى والتقدم

(١) ولد في البنجاب سنة ١٨٧٧م، وتلقى منذ صغره تربية اسلامية، وان كان قد التحق بمدارس وكليات تسير على النهج التعليمى الغربى، وحصل على ليسانس الآداب من «كلية الحكومة» في لاهور ، ثم انتقل الى لندن سنة ١٩٠٥ ودرس بجامعتها نحو ثلاث سنوات، وفي سنة ١٩٠٧ حصل على الدكتوراه في الفلسفة من ألمانيا، وعاد الى الهند في سنة ١٩٠٨ حيث بدأ يؤسس دعوته الاصلاحية التى استمد عصارتها من الاسلام،واستخدم فى نشرها كلا من الشعر والنثر فنظم العديد من الدواوين باللغتين الفارسية والأردية ، كما نشر كتابين باللغة الانجليزية أحدهما كتاب «تجديد التفكير الدينى في الاسلام». وقد انخرط اقبال في خضم الحياة السياسية في الهند للدفاع عن الاسلام والمسلمين في شبه القارة،وانضم الى «الرابطة الاسلامية» وكان هو صاحب فكرة انشاء وطن مستقل للمسلمين فى شبه القارة الهندية، وهو الوطن الذى تحقق انشاؤه بعد وفاة اقبال. وبعد حياة حافلة بالعمل والفكر والابداع والجهاد صعدت روحه الى بارئها في ٢١ ابريل ١٩٣٨م.

الروحى والمادى، وأوقع الحظ العاثر هذا الزمام بيد أناس ليسوا مؤهلين روحيا لتلك المهمة السامية. فاضطربت أحوال العالم كله، اذ حققت البشرية تقدما هائلا في النواحى المادية ولكنها انهزمت هزيمة منكرة في الناحية الروحية، فتفشت المادية وأخلد الإنسان الى الأرض واتبع هواه.

كان المأمول أن يهبّ المسلم من نومه ويتقلّد الدور الذى هو مؤهل له فيعيد الأمور إلى نصابها، ويصحح وجهة الإنسان ويدفع بالانسانية نحو الطريق الصحيح... ولكن هيهات، كان الخمول قد ران على العالم الاسلامى، وكان معظم المسلمين بحاجة الى من يصحح وجهتهم هم، وفاقد الشئ لا يعطيه كما يقولون، ولم يكن ثمة سبيل الى اصلاح حال المسلمين إلا بإصلاح أنفسهم أولا عملا بقوله تعالى:

«إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ». (الرعد : آية ١١)

ولقد رأى إقبال أن تغيير النفس وتنويرها بحقائق الإسلام وتبديد الظلمات من جوانبها إنما يتم بسلوك نفس السبيل التى سلكها الصوفية من قبل فى تزيين أفكارهم للنفس المسلمة وحمل هذه الأفكار اليها على أجنحة الشعر، تلك الأداة السحرية الخلابة التى تفعل الأعاجيب بالإنسان من حيث كونها اللغة التى يفهمها الوجدان ويتأثر بها أيما تأثير. فاستخدام الشعر فى مخاطبة هذه النفس كان من شأنه فى رأى إقبال أن يفك العقدة بنفس الطريقة التى انعقدت بها من قبل..

لقد حاول عدد من كبار المصلحين والمجددين السابقين تحرير إرادة النفس المسلمة ونفى ما اعتراها من أوهام، واستخدموا فنون المنطق وأساليب الإقناع في هذا السبيل. وكان من بينهم شيخ الإسلام ابن تيمية.. يقول إقبال في مقدمته النثرية لمنظومة «أسرار خودى» أى أسرار الذات الإنسانية، التى نشرها سنة ١٩١٥م:

«خاطب فلاسفة الهند العقل في إثبات وحدة الوجود. وخاطب شعراء إيران القلب فكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة

فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة فى العمل ، ولعل شيخ الإسلام ابن تيمية من علماء المسلمين وواحد محمود من فلاسفتهم، أول من رفعوا الصوت باستنكار هذه النزعة، ولكن مصنفات واحد محمود لا تُلفَى اليوم، ولا ريب أن منطلق ابن تيمية القوى أثّر أثَرَهَ ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نُضرة الشّعر وفتنته[٢].

ومن حسن إقبال وسعادة جدّه، بل ومن حسن حظ من خصهم بدعوته الإصلاحية من المسلمين في شبه القارة الهندية وأفغانستان وايران وآسيا الوسطى أن إقبال كان شاعرا، وأنه كان قد برع في نظم الشعر منذ شبابه. وعندما اكتملت ملامح دعوته ـ وهى التى استمد عصارتها من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة ومن أقوال السلف واجتهادات الصالحين ورياضات الزهاد، عندما اكتملت ملامح الدعوة لديه خرج على الناس بأول دواوينه «اسرار الذات الإنسانية» سنة ١٩١٥م، فأحدثت ضجة كبرى في سائر الأوساط،ثم توالت منظوماته ودواوينه حتى بلغت أحد عشر ديوانا نظمها باللغتين الفارسية والأردية اللتين يعرفهما ويتكلم بهما عشرات الملايين من المسلمين في آسيا على اختلاف ثقافاتهم وطبقاتهم..

وقد استطاع إقبال أن يحقق بالفعل ذلك التغيير الذى كان يصبو الى تحقيقه فى نفوس بنى وطنه وغيرهم. فحدث ذلك التبدل والتغير المنشود، وأصبح المسلمون فى شبه القارة الهندية، وقبل استقلال الهند ، قوة يحسب لها حسابها ويخشى بأسها.

وسلّمت الطوائف غير الإسلامية في الهند بمطالب المسلمين، وكان أولها ذلك المطلب الأساسى الذى أُعلنه إقبال نفسه في سنة ١٩٣٠، حينما دعا إلى إقامة وطن خاص للمسلمين فى شبه القارة الهندية، وهو الوطن الذى يعتز به كل مسلم، والذى أُنشئ بعد وفاة إقبال وعقب تقسيم الهند سنة ١٩٤٧ باسم باكستان.

---

(2) Iqbal, M,: Secrets of the self, Translated by R.A.Nicholson Lahore 1950, Introduction,

وانظر ايضا : عبدالوهاب عزام: محمد اقبال. سيرته وفلسفته وشعره، طبع مصر ١٣٧٣هـ ، ص ٥٢.

تجاوب شرق العالم الاسلامي مع صيحة إقبال. وعندما عرف العرب إقبالا أكبروا فيه روحه وحماسته للاسلام وتأثروا كل التأثير بشعره القوى الأخاذ الذى يحرك الشعور ويهز الوجدان[٣].

ووثق به وبآرائه من بعده المثقفون من المسلمين، ، بل ومن المستشرقين الذين اعتمدوا على كتبه ودواوينه في فهمهم لبعض الظواهر في تاريخ الاسلام وحضارته.[٤].

وما زال إقبال يحظى الى يومنا هذا بتقدير كبير في مختلف الأوساط الاسلامية وفى سائر أرجاء العالم الاسلامى بعد أن ترجمت الى اللغة العربية معظم دواوينه، كما ترجم كتابه الهام «تجديد التفكير الدينى في الاسلام»، وأصبحت أفكاره وآراؤه الأساسية واضحة أمام أنظار العرب.

يتعين علينا الآن أن نطرح سؤالا ثم نحاول الاجابة عليه: هل تأثر إقبال بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ؟ وما مظاهر هذا التأثير ؟ وقبل الاجابة على هذا التساؤل ينبغى أن نعرض لمصادر إقبال[٥] فى التعرف على هذه الدعوة، ثم نتناول بعد ذلك الملامح التى نعتقد أن فيها قدرا من التأثر بالدعوة.

لاشك أن إقبالا كان معجبا ـ الى حد بعيد ـ بشخصية الشيخ وجهوده الذاتية التى لم تعرف الكلل في سبيل إصلاح الدين وتطهيره من شوائب البدع والخرافات والوثنيات التى دخلت عليه. وقد عبر إقبال عن إعجابه بالشيخ وبدعوته عندما وصفه بقوله: «المصلح المتطهر العظيم محمد بن عبدالوهاب»..

---

(٣) انظر فى ذلك ماكتبه المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام في مقدمة كتابه: محمد اقبال ص ٥، ٦ وكذا ما كتبه الاستاذ على الطنطاوى في مجلة «المسلمون» السورية ، والاستاذ ابوالحسن الندوى في كتاب روائع اقبال، طبع دمشق ١٩٦٠م ص ٩ ـ ١٠، ونجيب الكيلانى في كتابه محمد اقبال، طبع مصر ١٩٥٩م،وكاتب هذا المقال في كتابه رسالة الخلود لمحمد اقبال (دراسة تحليلية نقدية)، طبع مصر ١٩٧٤م.

(٤) منهم على سبيل المثال المستشرق البريطانى رينولد آلن نيكلسون في كتابه: فكرة الشخصية في التصوف ترجمة الدكتور أبوالعلا عفيفى ضمن كتاب «في التصوف الاسلامي وتاريخه» طبع مصر ١٩٥٦م.

(٥) أو ما نعتقد أنه استعان به فى التعرف على دعوة الشيخ.

لقد جاء هذا الوصف فى كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، وكان هذا الكتاب فى أصله عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها محمد إقبال باللغة الانجليزية فى ربوع الهند، فى كلكتا ومدراس وعليگرة، ثم جمعها في كتاب ونشرها بهذا العنوان في سنة ١٩٢٨م، فعد إقبال بذلك من بين من قدروا دعوة الشيخ قدرها وأعطوها حقها.

كانت هذه الدعوة قد لقيت في الهند حربا ضروسا لا هوادة فيها، حتى أن كل من رفع يديه في الصلاة أو جهر بآمين كان معرضا لأشد أنواع الأذى لأنه «وهابى»،وكان مصير من يتهم من مسلمى الهنود بأنه وهابى أن ينفى ويشرد ويقتل[٦]. ولكن برغم ذلك نهض جماعة من العلماء يبصرون الناس بحقيقة هذه الدعوة ويدعونهم الى التوحيد الحق والى نبذ البدع والضلال. وقد سبق هؤلاء العلماء إقبالا فى هذا السبيل فألفوا الكتب ودونوا الرسائل والمقالات للدفاع عن الدعوة والتبصير بها، وكان في مقدمتهم «النواب صديق حسن خان» (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ)، والسيد نذير حسين الدهلوى (المتوفى سنة ١٣٢٠هـ). وكان النواب صديق حسن قد نشر كتابين أحدهما بالفارسية والآخر بالأردية عن حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وقبل أن ينشر إقبال كتابه «تجديد التفكير الدينى» ببضع سنين، (ذلك الكتاب الذى أشاد فيه بالشيخ وبدعوته) كتب اثنان من كبار علماء المسلمين في الهند، ممن كانوا على صلة وثيقة بإقبال، موادا في التعريف بالشيخ وبدعوته، وبأحوال آل سعود، ونعنى بهما (السيد سليمان الندوى) الذى نشر عن هذا الموضوع مقالا ممتازا فى مجلة «معارف» الأردية الواسعة الانتشار سنة ١٩٢٤م، والحافظ أسلم جيراجبورى الذى نشر كتابا يتسم بالاختصار والوضوح بعنوان «تاريخ نجد»[٧].

ولا ريب إن إقبالا قد قرأ هذه الكتب التى كتبت كلها بلغته الوطنية، وألفها علماء

---

(٦) انظر تعليقات عبدالعظيم البستوى على كتاب محمد بن عبدالوهاب لمسعود الندوى طبع مكة المكرمة ، سنة ١٣٩٧هـ هامش ص ٢١١.

(٧) انظر التحليل القيم لمصادر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب: محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم مفترى عليه، لمسعود الندوى، طبع مكة المكرمة ١٣٩٧ ص ٢٢٧ وما بعدها.

كان بعضهم على صلة وطيدة به، فتأثر بها، وبدأ هذا التأثر واضحا في كتاباته وأشعاره.

ولم يكن علماء المسلمين فى الهند وحدهم هم الذين لفتوا إقبالا الى حقيقة «حركة الإصلاح الدينى العربى التـى قامت على يد المصلـح والمتطهـر العـظيم محمـد بن عبدالوهاب » بل كان لأستاذه المستشرق التايه «توماس آرنولد»[٨] صاحـب كتـاب «الدعوة الى الإسلام» بعض الفضل فى توجيهه هذه الوجهة . فالقارئ لكتاب آرنولد يستشعر الاحترام والتقدير الذى كان يكنه ذلك الرجل لدعوة الشيخ الإصلاحية ، تلك الدعوة التى أخذ أرنولد يتتبع إنتشارها وتأثيراتها المباشرة على الحركات الإصلاحية فى كل من البنغال وسومطرة وافريقيا السوداء[٩].

وكانت هذه المصادر الأردية والفارسية والانجليزية هى المتاحة أمام محمد إقبال عندما أراد أن يتعرف على دعوة الشيخ ويكتب عنها..

كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوة بسيطـة خالية من التعقيد، حجـر الزاوية فيها دعوة التوحيد وشعارها «لا إلٰه الا الله»، وهو شعار ليس غريبا على المسلمين بل هو أساس اعتقاداتهم كلها وجوهر دينهم كله، وهو الفيصل بينهم وبين غيرهم من الكتابيين والملحدين. غير أن حبائل الشيطان واسعة جدا، وقد أوقعت هذه الحبائل بعض أولئك المسلمين الموحدين في أعمال وأقوال تنطوى على شبهات الشرك والبعد عن توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والتقديس . وتتميز دعوة الشيخ بحساسيتها الشديدة تجاه ما يمس هذا الجوهر العقائدى، وهو التوحيد، فكل ما يصرف المرء عن الاتجاه إلى الله بالعبادة والدعاء والتقديس والاستغاثة والاستعاذة انما يعـد نوعـاً من الشرك يقتضى تحطيم أسبابه وهدم دواعيه ، وما تلك الأضرحة والقبور التى يتجه الناس فيها بالدعاء

(٨) تتلمذ محمد اقبال على السير توماس آرنولد «في الكلية الحكومية في لاهور، قبل حصوله على الليسانس فى الآداب. ثم كان آرنولد هو الذى شجعه على مواصلة دراسته العالية في لندن والحصـول على درجـة الدكتوراه بعد ذلك.

(٩) انظر: توماس آرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ـ طبع مصر ١٩٤٧م، ص ٢٣٩ ومواضع أخرى متفرقة.

والاستغاثة والاستعاذة إلى غير الله سبحانه الا مواثن ومواطن للشرك. لذلك ينبغى أن تهدم وتقوض أركانها حتى يفيق قاصدوها الى التوحيد الحق، وينصرفوا إلى الله وحده.

من هذا المحور الفكرى والعقائدى، ومن تلك الحساسية الشديدة تجاه كل ما يصرف الإنسان عن الله وحده، استمد إقبال في أشعاره الكثير من المواقف والمشاهد والتشبيهات، وتوسع في دعوة التوحيد، واستنبط مفاهيم جديدة من كلمة الشهادة «لا إله الا الله» . وهذه المواقف والمشاهد شائعة ومتناثرة فى دووراينه وأشعاره، طرقها إقبال وعرضها بأساليب مختلفة وتناولها من جوانب متعددة ، ولا يسعنا المجال هنا أن نأتى عليها جميعا، ومن ثم سنذكر بضعة نماذج منها توضح لنا كيف تناول فكرة التوحيد وتوسع فيها وأضاف أبعادا جديدة اليها:

في إحدى سياحاته الروحية التى أوردها فى منظومته «رسالة الخلود» تصور إقبال انه يمضى فى رفقه الشاعر الفارسى جلال الدين الرومى ليذهب الى واد تجتمع فيه الأصنام التى عبدتها الشعوب القديمة ، يقول إقبال «فى هذا الوادى تعيش الآلهة القديمة التى عبدتها أمم الجاهلية، فهذا إله المصر يين القدماء وهذا رب حمير، وهذان من اليمن، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية... كل منهم يرتعد خوفا من الذكر الجميل، فهم مشفقون من القرآن الكريم الذى وضع نهاية لهم، وأقام عالما جديدا على أساس التوحيد. كانت هذه الأصنام تتحدث فى فرح غامر عن فرار الإنسان المعاصر من الله، وعودته الى الجاهلية القديمة،وأخذ رئيسها بعل إله الفينيقيين والكنعانيين القدماء ينشد أنشودة في طرب ومرح،ويقول فيها «لقد مزق الإنسان هذه السماء الزرقاء ونظر فيما وراء الفلك فلم يشهد إلاها. يابشراى، ليس فى قلب الإنسان سوى أفكار وخواطر (تسنح له ثم تغيب) كالموج،هذه تعلو وتلك تتوارى، وروحه لا ترتاح وتطمئن الآن الا بالمحسوس، (ولم يعد لها شأن بالغيب).... فلعل عصر الجاهلية يعود من جديد ألا فليحيا المستشرقون الأوربيون... لقد عملوا على بعثنا من قبورنا (فلقد بذروا بذور الشك فأثمرت الإلحاد)... ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة».

«انظروا. لقد تحطمت حلقة الوحدة وفقد آل إبراهيم (المسلمون) لذة العهد والميثاق

الذى أخذه الله عليهم يوم سألهم «ألست بربكم». ان وحدتهم مبعثرة ، فكأسهم تحولت الى شظايا تافهة. لقد وقع الرجل المؤمن فى أسر الجهات ـ وهو الذى لم يكن يعرف الحدود والجهات، ولم يكن يعبد غير الإله الذى خلق الأرض والسماوات ـ ارتبط هذا الرجل الحر بالوطن وانفصل عن الله.... ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمه.

«لقد عادت لنا أيام الطرب في الدنيا وانهزم الدين بالملك والنسب (بالسيادة الوطنية والتعصب العنصرى)، ولا يحسن بنا الآن أن نخشى الاسلام... فما سبب الخوف من مصباح المصطفى ؟ ان هذا المصباح الذى أناره محمد تألب عليه مائة أبى لهب يطفئونه ، ولئن كان صوت «لا اله الا الله» ما زال يتردد. (فهو صوت يصدر عن الشفتين لا عن القلب» ، فكيف يمكن أن يبقى على الشفة ما محى من القلب ؟! ولا ريب فى أن الأجيال القادمة ستنسى كلمة التوحيد. إن سحر الغرب أحيا أهرمن ـ إله الشر والظلام في بلاد الإسلام من جديد، فأصبح يوم يزدان ـ اى دين الله ـ ممتقع الوجه خوفا من الليل والظلام... انه ليل الجاهلية الحديثة يوشك ان يطبق على العالم، هاهى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة...

«يجب فك قيد الدين الذى يكبل رقبة الانسان، لقد كان عُبّادنا أحرارا ـ لهم التصرف المطلق والحرية الكاملة في حياتهم، ولما كان أداء الصلاة ثقيلا فاننا لم نثقل عليهم بصلاة، وانما طلبنا ركعة لا سجود فيها، وجعلنا العواطف تستعر فيهم بالأنغام والألحان ... فأية لذة فى صلاة لا غناء فيها ولا موسيقى[١٠].

ولا ريب في أن طاغوتا يبدو للعيان أفضل من إله غائب لا تدركه الأبصار. ها هى ذى الفرصة سانحة أيتها الآلهة القديمة.[١١].

---

(١٠) قال تعالى عن المشركين: «وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية». (الانفال: ٣٥)، والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

(١١) محمد اقبال : رسالة الخلود (جاويد نامه)، الترجمة العربية لكاتب هذا المقال ١٧٨ ـ ١٧٩.

وبعد أن ينشد بعل أنشودته تلك، يقف جلال الدين الرومي الذى كان يصحب إقبالا فى جولته الخيالية هذه فيصيح صيحة تخر على أثرها تلك الأصنام سجدا. يقول في صيحته «قال شيخنا: إن هذه الدنيا ليست على أسلوب محكم (فهى متقلبة لا تستقر على نمط واحد). لذا ينبغى صرف النظر عن حلوها ومرها. فلو أنك أردت ترك الدنيا لتتجه اليه هو، فعليك إذن أن تتحول عن نفسك (الأمارة وتتخلى عن رغباتها ونوازعها). قلت للشيخ: إن في قلبى الكثير من الرغبات (لات ومناة)، فأشار على قائلا: ينبغى جعل هذا الوثن حطاما[12].

فإقبال يتحدث فى أنشودة بعل عن ظاهرة أقلقت بال كل المصلحين فى العالم الإسلامى وهى ظاهرة سيادة الحس وضعف الإيمان بالغيب وعبادة المحسوس، كالذهب والفضة والنساء والمتاع والتعصب للجنس والوطن، فاستحالت هذه الأمور كلها فى قلوب بعض الناس إلى آلهة جديدة، يعبدونها من دون الله ، فتحولت تلك القلوب إلى معابد لتلك الآلهة، وخلت من التوحيد وبعدت عن الله سبحانه، في حين أن القلب وقف على الله وحده، يتعين على المسلم الغيور على دينه ألا يجعل فى قلبه مكانا لأحد سوى الله. ولكن هذا لا يعنى أن يعتزل الإنسان العالم، ويقول إقبال : «أنا لا أقول لك اعتزل العالم. فهذه الدنيا الزاهرة بالألوان والروائح، بالمادة والحس هى مملكتك، فاجمع من تربتها الجواهر حبة حبة، وخذ الصيد من سمائها كالصقر، وأعمل فأسك فى سلاسلها الجبلية وأدرك بعقلك ما خفى من ثرواتها (واستخرج المعادن البراقة ومصادر الطاقة من باطنها). ولكن كن بعيدا عن طريق آذر»، فلا تعبد الأرض والمادة من دون الله، بل انحت عالما جديدا وفق مرادك. ولا تسلم قلبك للون أو لرائحة ، لقصر أو لدرب (لاتسلم قلبك لهذه الدنيا، فالقلب وقف على الله وحده، فلا تسلمه لغيره). فكل من يتلفظ من قلبه بكلمة «لا إله الا الله»، يمكن أن يُفْقِدَ عالما فى ذاته»[13].

فالتوحيد ـ فى رأى إقبال هو أساس الحياة،فمن عمل بالشهادة على وجهها ضاعت

(١٢) ايضا ، ص ١٨٠

(١٣) ايضا ص ١٦٠

الدنيا فيه ولا يضيع هو فيها، والا نسان لا يفوز بمكانته الا بالتوحيد، الا بالتطلع الى الله وحده، وعندئذ تدين له الدنيا بأسرها.

على أن إقبالا ـ كما شاهدنا في أنشودة بعل ـ يدخل في أنواع الشرك وضروب الإلحاد أمرا ابتلى به العالم الاسلامى كله مؤخرا، ونعنى به دعوى الوطنية ، تلك الدعوى التى حاول الأوربيون والمستعمرون أن يشتتوا بها شمل الوحدة الاسلامية ويبعدوا المسلمين عن روح الاسلام العالمية. والوطنية بمفهومها السياسى الغربى منافية في رأى إقبال للتوحيد الحق، فالأمة الاسلامية أساسها التوحيد لا الإنسان ولا الأوطان، التى أصبحت في عرف الغربيين صنما يعبد من دون الله يقول :

أمم قد عبدت أوطانها . . وبنت من نسب بنيانها
أترى الأوطان أصل الأمم . . تعبد الأرض بها كالصنم
هذه الأنساب فخر السفهاء . . حكمها فى الجسم والجسم هباء
ولنا فى الحق أس آخر . . هو في الألباب منا مضمر
قد خلصنا من حدود وقيود . . قلبنا فى الغيب اذ نحن شهود[١٤]

وحساسية إقبال تجاه كل ما يمس عقيدة التوحيد تمتد وتتسع لتشمل ضروبا أخرى وصنوفا شتى من صنوف الشرك، فتلك النظم المادية من شيوعية ورأسمالية إنما تدعو الانسان الى الشرك بالله سبحانه. فالشيوعية والرأسمالية تجمعها سمات مشتركة،فكلاهما يدعو الى إحلال «عبادة البطون محل عبادة الله»، ومن ثم كانت النتائج المترتبة على كلتيهما واحدة لا فرق بينها، فكلاهما يعبد المادة. ويعبر عن الجانب الحسى وحده من الإنسان.[١٥]

(١٤) من ديوان «رموز بى خودى» (أى رموز نفى الذات)، ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام . انظر ديوان الاسرار والرموز، طبع مصر ١٩٥٦م.

(١٥) انظر تفصيل ذلك فى «رسالة الخلود» الترجمة العربية ، ص ١٤٥ وما بعدها وانظر ايضا : محمد اقبال: تجديد التفكير الدينى في الاسلام، الترجمة العربية لعباس محمود، طبع مصر، ١٩٥٥م، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

على أن التوحيد عند إقبال ـ ليس مجرد كلمة تقال أو شعار يعلن ، بل إن له معنى قدسيا لا يستطيع أن يتذوق معناه الا اذا عمل بمقتضاه وسلك طريق الحياة على هداه.[١٦]

والدور الذى تقوم به الأم والمرأة المسلمة فى بعث نور التوحيد في قلوب الأجيال الجديدة من الأمة دور لا يعدله دور، ففى أنفاسها التى تربى بها وليدها حياة الدين وهى حصن الشرع المبين. يقول مخاطبا المرأة المسلمة «خلقتك الطاهرة لنا رحمة وأنت قوة الدين وحصن الملة. يا من تفطمين فينا الوليد على كلمة التوحيد»[١٧].

ويوجه حديثه إلى الشباب المسلم قائلا. «لقنتك أمك الدرس الأول ـ درس التوحيد ـ لقد تفتحت زهرتك بفعل نسيمها... وادخرت بفضلها ملكا خالدا، فلقد تعلمت «لا إلٰه الا الله من شفتيها. فإن قلت «لا إلٰه الا الله» فقلها اذن بالروح كى تهب روائح الحبيب من كيانك. تدور الشمس والقمر من حرارة لا إلٰه الا الله، لقد رأيت هذه الحرقة في الجبل والقشة[١٨]، ان كلمة التوحيد ليست مجرد قول، انها ليست سوى سيف لا يرحم، والحياة بحرقة التوحيد قَهْر، لا إلٰه إلا الله ضرب وضرب فعال[١٩]، فحياة الموحّد كلها تحطيم للباطل كتحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام.

وللتوحيد دور في حياة الأمم لا يقل عن دوره في حياة الأفراد، فالفرد يصبح ربانيا بالتوحيد. والأمة تصبح جبروتا بالتوحيد، فإذا آمن الإنسان بوحدانية الله ولم يسلم قلبه لغيره أصبح متخلقا بأخلاق الله، واذا تخلق أفراد أمة بأخلاق الله تفوقت على أمم العالم جميعا ونالت العزة والهيبة.[٢٠]

---

(١٦) انظر: الصاوى شعلان: إيوان اقبال ، مصر ١٩٧٧، ص ٢٣.

(١٧) انظر عبدالوهاب عزام : محمد اقبال ... ص ١١٠.

(١٨) فالكون مسلم، انظر: ابن تيمية: جامع الرسائل، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم طبع مصر ١٩٧٠م، الرسالة الاولى بعنوان: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى.

(١٩) رسالة الخلود، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢٠) أيضـــا.

ويرى إقبال ان سر الحياة كلها كامن في قول «لا إله الا الله»،فكلمة التوحيد هذه تحتوى على أصلين ، هما : قوتا السلب والايجاب، ففى الأولى معنى الجلال وفي الثانية سمة الجمال، فاذا تلاقت القوتان تعادل ميزان الحياة واستقر كيانها، فبين «لا» و «إلا» تجرى الكائنات بحسبان، ان كلمة التوحيد هى كلمة القدر التى صنعت منها العناصر فمن «لا» تتولد الحركة وبفضل «إلا» تمضى إلى الثبات والسكون : ومنهما البداية والنهاية لقوله تعالى: «كن فيكون».[٢١]

وقد استخدم إقبال كلمة التوحيد فى نقده للحركة الماركسية فى ديوانه «رسالة الخلود» (نشر سنة ١٩٣٢)، فقد دعا الروس إلى الإسلام وذكرهم بأنهم قطعوا نصف الطريق اليه، وأن عليهم أن يوأصلوا السير الحثيث ليبلغوا درجة الإسلام فينتقلون من رفض كل شئ إلى إثبات الوجود لواجب الوجود سبحانه، يقول إقبال موجها حديثه لأمة الروس:

لقد فرغت الآن من السادة، سواء كانوا قياصرة أم رأسماليين أم إقطاعيين، فعليك أن تتركى «لا» وتغذى السير نحو «إلا» لقد قلت «لا إله» فقولى اذن «إلا الله» اتركى لا اذا كنت باحثة حقا، كى تأخذى طريق «الإثبات الحى»[٢٢].

ثم عاد إقبال وتناول نفس الفكرة في ديوان نشره بعد ذلك بعنوان «ما العمل اذن يا أمم الشرق ؟ قال فيه :

- وهكذا ترى أنه في عصر السيطرة الأوربية، نشبت الحرب بين العبيد والسادة.
- فتحول قلب روسيا الى دم، وخرجت من ضميرها كلمة «لا».
- لقد ألقيت نظرة على مقاماتها وملامحها، فوجدتها : لا قياصرة، لا كنيسة،لا إله.
- وبقى فكرها في مهب عاصفة «لا»، ولم تدفع بركبها نحو «إلا».
- غير ان الحياة لا تستريح فى مقام «لا» الكون يمضى قدما نحو «الا».

---

(٢١) انظر محمد اقبال: ديوان پس چه بايد كرداى أقوام الشرق (ما العمل يا أمم الشرق) لاهور ١٩٣٦م، الفصل الرابع. وانظر ايضا: الصاوى شعلان، ايوان اقبال ص ٢٣.

(٢٢) رسالة الخلود، الترجمة العربية ، ص ١٦٧.

فنظرة الانسان ـ في رأى إقبال لا تطمئن ولا ترتاح الى الرفض والنفى والإنكار وحده، بل انها تتجه بطبيعتها الى الإثبات، فلا شئ يقوم على السلب أبدا، ولا يكون النظام راسخا مستقرا الا اذا قام على الإثبات..

قد لا نستطيع ـ برغم كل هذه الشواهد والأدلة التى سقناها للدلالة على وحدة الفكر والهدف بين دعوة الشيخ ومنهج إقبال ـ ان نقطع بأن إقبالا متأثر في شعره ـ تأثرا مباشرا بهذه الدعوة، لا نستطيع ان نقطع بتأثره المباشر لأن دعوة محمد بن عبدالوهاب لم تكن مذهبا جديدا بل كانت تجديدا لهذا الدين وإحياء لرسومه، وتنقية لصفحته من شوائب الشرك والإلحاد. فما هذه الدعوة إلا تجلية للاسلام في أصوله وفروعه ومبادئه، تلك الأصول التى وفاها علماء المسلمين على مر العصور حقها من الدراسة والشرح والتوضيح.

وإقبال قد قرأ دعوة الشيخ . كما قرأ ما كتبه شيوخ الاسلام من المصلحين والمجددين السابقين . فعكف على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية،وبدا أنه يكن له ولتلميذه ابن القيم وغيرهما من العلماء السلفيين تقديرا كبيرا. ولذلك يصعب على الباحث أن يحدد مصادر هذه المؤثرات: أمن دعوة الشيخ جاءت أم ان هذه المؤثرات أتت مباشرة من الأصول والفروع والمبادئ الإسلامية (التى هى أصل هذه الدعوة وفحواها) ؟

لكننا لا نستطيع ـ في نفس الوقت ـ أن نقول إنه لم يتأثر تأثرا مباشرا بدعوة الشيخ بعد أن قرأها واستوعبها. ذلك لأن لدينا على الأقل شاهدا بخلاف ما سبق ذكره ـ يؤكد هذا التأثر. فلقد كانت الترجمة العملية الواضحة لدعوة محمد بن عبدالوهاب هى تحطيم القباب المقامة على القبور لصرف الناس عنها كيا يفردوا عبادتهم وتقديسهم لله تعالى وحده..

ولقد ورد في شعر إقبال ما يفيد تأثره بهذا الجانب اللصيق بدعوة الشيخ. فإقبال ينعى على المشايخ القائمين على هذه الأضرحة والقبور، ويعزو اليهم السبب في تشجيع

عوام المسلمين على زيارة الأضرحة ودعاء أصحابها والاستشفاع بهم. ويقول إنهم يستغلون سذاجة هؤلاء العامة أسوأ استغلال،فينصبون لهم الفخاخ باقامة الموالد وصناديق النذور. يقول فى ديوانه «جناح جبريل» عن مشايخ هذه الأضرحة:

«انهم لو وجدوا حصير الزهراء،ودلق أويس القرنى،وكسرة أبى ذر الغفارى لأكلوا السحت من أثمانها»[٢٣].

واذا كان قد اتضح ان إقبالا قد تأثر بالملامح العملية لدعوة الشيخ، فإننا نلاحظ أنه أضاف أبعادا معنوية جديدة لمفهوم تلك الأصول الاسلامية التى أحياها وجلاها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، فقد حاول إقبال تعميق مفهوم التوحيد وتوسيع دائرته في النفس وجعل القلب وقفا على الله وحده، ودعا الى تحطيم الأصنام التى صنعها الإنسان بنفسه ونحتها في قلبه ليعبدها من دون الله سبحانه. وبين أن المسلم ينبغى أن يكون يقظا دائما مراقبا لأحواله النفسية حتى لا تتسرب شبهات الشرك ووساوس الشيطان الى قلبه، وحتى لا يرتاح الى هذه الظواهر المادية الخادعة المحيطة به،وانما تكون راحته في عبادة الله وحده. وان التوحيد ليس مجرد كلمة تقال بل هى ذوق وتجربة روحية . وان قول لا إلّه إلا الله هو أس الحياة بجميع مظاهرها، وهو يدل دلالة قاطعة على أن وجهة المسلم الموّحد ليست منصرفة نحو هذا الكون وإنما وجهته لله سبحانه.

ولئن كان محمد إقبال قد درس هذه الدعوة وأبدى إعجابه بها وبصاحبها ، وبدا وكأنه تأثر بها، الا أنه أخطأ حين ذكر في كتابه «تجديد التفكير الدينى » (نشر سنة ١٩٢٨م). أن الحركة البابية فى ايران ليست سوى صدى لحركة الإصلاح الدينى العربى التى قام بها المصلح المتطهر العظيم محمد بن عبدالوهاب.[٢٤].

والواقع أن هذا الذى قاله إقبال بعد خطأ كبيرا لكونه صادرا عن مفكر كبير

(٢٣) انظر محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان: فلسفة اقبال. الطبعة الثانية. دمشق ١٣٩٥هـ ص ٣.

(٢٤) انظر : تجديد التفكير الدينى، الترجمة العربية ، ص ١٧٥.

موثوق به وحجة في تاريخ الفكر والثقافة الاسلامية .. ومن ثم يتعين علينا مناقشته ومحاولة إزالة ما قد يعلق بالأذهان في هذا الصدد.

وينبغي أن نتساءل ما الصلة بين حركة الإصلاح الدينى العربى التى دعت الى التوحيد والى نبذ الشرك والتى يقول صاحبها: ... انى والحمد لله متبع ولست بمبتدع عقيدتى ودينى الذى أدين الله به هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذى عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم الى يوم القيامة.[٢٥].

ما الصلة بين هذه الدعوة وبين حركة محمد على الباب (توفي سنة ١٢٦٦هـ) الذى زعم تارة انه المهدى المنتظر، ثم زعم بعد ذلك أن الوحى غير منقطع وأنه جاء ناسخا لشريعة القرآن وأحكامها، وادعى النبوة وانه أوحى اليه بكتاب أسماه: «البيان»، وأن معجزات الأنبياء وقصصهم، والملائكة، والجن، والوعد، والوعيد، والحشر، والنشور، واليوم الآخر ليست على مايعلمه الناس من مفاهيمها ومعانى كلماتها، ويؤول ذلك كله تأويلا يذهب مذاهب شتى من الكفر والضلال والزور والبهتان، فما البابية فى واقعها إلا عقيدة جديدة لا تمت الى الدين الحنيف بأية صلة.

واذا نحن عمدنا الى تلمس صلة بين الحركة البابية الكافرة المارقة وبين دعوة الشيخ الهادية المؤمنة من الناحية التاريخية فلن نجد صلة على الإطلاق، اذ لم يقدر لمحمد على الباب أن يتصل بدعوة الشيخ من أى طريق، بل لم يشأ الله للباب أن يطأ الأراضى المقدسة، بعد أن كان قد عزم على الذهاب الى مكة،فغرقت السفينة التى كان يستقلها، ولكنه نجا هو ونفر من دعاته وعادوا الى ميناء «بوشهر»[٢٦].

فليست هناك صلة ما بين الحركة البابية ودعوة محمد بن عبدالوهاب، بل ليس هناك مجال للمقارنة في شئ بينهما على الإطلاق.

---

(٢٥) من رسالة للشيخ محمد بن عبدالوهاب الى أحد شيوخ بغداد، انظر: حسين خلف الشيخ خزعل: حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بيروت ١٩٦٨م، ص ١٧٤، وانظر ايضا أحمد عبدالغفور عطار: محمد بن عبدالوهاب، الطبعة الثالثة بيروت ١٣٩٢هـ ، ص ١٦٨ ومابعدها.

(٢٦) انظر: محمد فاضل : الحراب في صدر البهاء والباب، ط . مصر ١٣٢٩، ص ١٦٣ وما بعدها.

لكننا نفهم من كلام إقبال انه لم يكن يريد بإشارته الى أن البابية صدى لحركة الإصلاح الديني العربي أن يغض من شأن دعوة الشيخ أو يقلل من أهميتها ، بل على العكس من ذلك رأى أن هذه الدعوة لا تزال تحمل من عوامل القوة والتأثير ما يجعل أرجاء أخرى من العالم الإسلامى ـ غير الجزيرة العربية ـ تتجاوب مع أصدائها وتتأثر بها وتأخذ عنها. وأن تلك القبائل العربية في جزيرة العرب (تلك القبائل التى استجابت لدعوة الشيخ) ما تزال تتمتع بقوة الإيحاء والتأثير على جيرانها من الدول الإسلامية، لأن هذه القبائل لا زالت مستمسكة بمعنوياتها القوية، ولم تفقد ـ بفعل التمدين ـ بداوتها وفطرتها السليمة[٢٧]، وقدرتها على التأثير في غيرها..

فاقبال اذن لم يخطئ بقدر ما أخطأ في ثقته بالحركة البابية، فعدها حركة إصلاحية، وأشاد في ديوانه «رسالة الخلود» الذى نشره سنة ١٩٣٢ بالشاعرة البابية «قرة العين الطاهرة» التي كانت من كبار الدعاة للمذهب البابى.[٢٨]

ومما يبعث على الدهشة حقا أن البابية تتصادم مع أفكار إقبال نفسه، وتعلن عصيانها على نفس المبادئ التى يؤمن بها ويدعو اليها . ومن ينظر نظرة عابرة لدعوة محمد على الباب يدرك ـ منذ الوهلة الأولى ـ أنها تقول بأن الوحي غير منقطع،فهى بذلك تتعارض مع عقيدة من أهم العقائد الاسلامية هى «ختم النبوة» وهى عقيدة أفاض إقبال فى شرحها في نفس الكتاب الذى أشاد فيه بالحركة البابية[٢٩] وبين أنها عقيدة تنطوى على فكرة عظيمة لم تقدر قدرها ولم تعرف قيمتها في الثقافة الاسلامية،فختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم يحمل معه ـ في رأى إقبال أمرين: ان النبوة في الاسلام تبلغ كمالها الأخير فى إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوى على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا الى الأبد على وقود يضاء منه ليعتمد فى النهاية على رسائله

(٢٧) انظر حديث اقبال الى السنيور موسلينى الايطالى، وقد ورد بعض هذا الحديث في كتاب فلسفة اقبال ص ٢١.

(٢٨) انظر رسالة الخلود، الترجمة العربية، ص ٢٠٨ وما بعدها . على أن اقبالا هاجم في نفس الديوان ـ اعنى رسالة الخلود البهائية التى تعد امتدادا للبابية ونتيجة طبيعية لها، انظر ص ٣٢٤.

(٢٩) انظر تجديد التفكير الدينى : مثلا ص ١٤٤، ١٧٧ من الترجمة العربية..

هو: الأمر الثانى هو الحيلولة دون ظهور الفكرة المجوسية والمسيحية فى المجتمع الإسلامى، وهى فكرة الترقب الدائم والتطلع لظهور ابناء زردشت الذين لم يولدوا بعد، أو ظهور المسيح المنتظر.... «لقد سار ابن خلدون على هدى من نظرته الى التاريخ فأفاض في نقده، وقضى فيما أعتقد قضاء نهائيا على الأساس المزعوم لفكرة ظهور مخلص فى الإسلام (يعنى فكرة المهدى المنتظر)، وهى فكرة شبيهة فى آثارها السيكولوجية بالفكرة المجوسية الأصلية التى كانت قد ظهرت فى الإسلام تحت تأثير الفكر المجوسى[٣٠].

إذن فهناك اختلاف أساسى بين أفكار إقبال وغيره من المصلحين الاسلامين وحركة محمد على الباب . ولا يقتصر هذا الخلاف على عقيدة ختم النبوة وحدها بل ينسحب الى سائر العقائد ، ولكنه مع ذلك اختلط عليه أمر هذه الحركة فأحسن الظن بها .

ويتبين لنا من تتبع آراء إقبال فى هذا الصدد أنه ظل ينظر الى البابية باعتبارها حركة إصلاحية حتى سنة ١٩٣٣، يتضح ذلك من الخطة التى وضعها في تلك السنة لتأليف كتاب جديد باللغة الانجليزية بعنوان:

''Introduction to the Study of Islam.''

أى مقدمة لدراسة الاسلام، وهو كتاب لم يقيض لإقبال ان يكتبه أصلا.[٣١].

ولكنه بدأ في المرحلة الأخيرة من حياته يغير نظرته الى أصول الحركة البابية ودوافعها فقد كتب في مقال بعث به الى صحيفة «ستيتمان» البريطانية[٣٢] يقول: «يعمل الروس على نشر المذهب البابى ويسمحون للبابية بإقامة أول مركز للدعوة لمذهبهم فى «عشق أباد»، فى الوقت الذى تعمل فيه بريطانيا على نشر «الأحمدية» (يعنى القاديانية) وتسمح لهم بإقامة أول مركز للدعوة لمذهبهم فى «دوجنح» . إن الفصل بين هاتين الظاهرتين عندى

---

(٣٠) تجديد التفكير الدينى ص ١٧٧.

(٣١) انظر Letters and Writings of Iqbal, Lahore, 1967,p .78.

(٣٢) لم اعثر على هذا المقال في لغته الأصلية وهى الانجليزية، وانما عثرت على تلخيص له باللغة الأردية في كتاب «اقبال اورسياست ملي»، لرئيس أحمد جعفرى. طبع كراتشى سنة ١٩٥٧م، ص ٣٢٤ وما بعدها.

أمر جدّ صعب، فما السبب الذى يدعو الروس وبريطانيا ـ رغم اختلاف المشارب ـ الى الاتفاق فى هذا الاتجاه ؟ «وانتهى إقبال الى أن هذا العمل ينطوى على محاولة لتفتيت وحدة المسلمين.

كذلك نظم فى ديوان له نشر قبل وفاته بسنة واحدة (أى سنة ١٩٣٧) قطعة تتضمن معنى السخرية والتهكم بالباب عنوانها «محمد على الباب».(٣٣).

فدل إقبال بذلك على أنه قد غير رأيه في تلك الحركة بعد أن أدرك أغراضها وفهم حقيقتها، تلك الحقيقة التى كانت غائبة عنه يوم عد «البابية» صدى لحركة الإصلاح الدينى العربى الذى ظهر على يد المصلح المتطهر العظيم محمد بن عبدالوهاب على حد تعبير إقبال نفسه.

وهكذا يتبين لنا أنه كانت هناك عوامل ايجابية بمنتهى الفعالية والقوة فى صلة إقبال بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب،تلك الدعوة التى أعجب إقبال بها وبصاحبها وبدا أنه تأثر فى شعره بها في أخص جوانبها الفكرية ـ وهو جانب التوحيد، كما تأثر بأخص جوانبها التطبيقية، من هدم للقباب المقامة على الأضرحة وتحطيم لكل أسباب الشرك ودواعيه.

كما يتبين أنه هناك قدر ضئيل من العوامل السلبية في هذه الصلة نجم عن حسن ظنه بالحركة البابية في ايران ، التى عدها في وقت من الأوقات صدى لدعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب فى الجزيرة العربية. ولكن إقبالا ما لبث أن عَدَل عن ثقته بتلك الحركة البابية حين أدرك حقيقتها،فانتقدها وهاجم مؤسسها ، وبذلك ظلت صلته إيجابية بدعوة الشيخ. تلك الدعوة التى رأى أنها ما تزال تحمل من عوامل القوة والتأثير ما يجعل أرجاء أخرى من العالم الاسلامى ـ غير الجزيرة العربية ـ تتجاوب مع أصدائها وتتأثر بها وتأخذ عنها ..

---

(٣٣) انظر: محمد اقبال: ديوان ضرب الكليم، الترجمة العربية لعبدالوهاب عزام، طبع بمصر ١٩٥٢م، ص ٣٠.

أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر

للدكتور عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ المساعد بكلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تـوطئـــة:

من الحقائق المقررة فى (قضايا الحضارة) أنها لا تخضع لذلك الوضوح الحاسم الذى تخضع له قضايا التاريخ .

فبينما يستطع المؤرخ ـ بأدوات البحث المعتمدة ـ أن يصل إلى تحديد قريب من الصحة لكل واقعة تاريخية يدور بحثه حولها .. فإن الباحث فى الحضارة لا يستطيع أن يصل إلى هذا التحديد الواضح، وهو يعالج القضايا الحضارية، ولا سيا إذا كان الأمر متعلقا بعلامة «التأثير والتأثر» التي تربط موجة فكرية سابقة بموجة أخرى لاحقة .

وحسب (عالم الحضارة) فى هذا المجال أن يرصد السمات التي تميزت بها كل موجة، ثم يبحث ـ مستعينا بالتاريخ ـ عن المعابر التى التقت عندها الموجتان، بحيث يقنع قارئه بخلو استنتاجاته من التكلف والتعسف ويضع يده على الخيوط المرئية والمستنتجة التى جعلته يقرر أن هناك تأثيرا وتأثرا بين السابق واللاحق .

حقائـــق تاريخيـــة ثـلاث :

وفى مقدمة بحثنا هذا نستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث حقائق تاريخية مؤكدة.

أولاها : تظهر على الطرف الأول «المؤثر» وهى أن مصلحا إسلاميا قد ظهر فى جزيرة العرب ـ على فترة من الجاهلية المستأنفة ـ ولد بالعيينة شمال غربى الرياض سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) واسمه محمد، واسم أبيه عبدالوهاب، مجمع على مزاياه الموروثة والمكتسبة، وعلى خلائقه الفاضلة[١] ، وكان محمد هذا سباقا فى عقله وفى جسمه، حاد المزاج، فقد استظهر القرآن قبل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل إتمام الاثنتى عشرة سنة[٢] !!

(١) أحمد عبدالغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب ط٣ ـ مكتبة العرفان بيروت ص ٣١.

(٢) أحمد بن حجر أبو طامى: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٥هـ ص ١٥.

وقد عاش محمد بن عبدالوهاب ـ موضوع الحقيقة التاريخية الأولى ـ حياة حافلة بالتعلم والارتحال فى طلب العلم، والجهاد فى سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح حال الأمة الإسلامية، وسبيل عودتها إلى مكانتها التاريخية .. حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه فى الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو ـ أمام عينيه ـ من حياة الجاهلية إلى حياة الحاضر، وأنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[٣].

والحقيقة التاريخية الثانية.. حقيقة تظهر على الطرف الآخر «جانب التأثر»، ونحن نرى هذه الحقيقة فى تلك الموجات الإصلاحية الإسلامية التى بزغت فى أرض الجزائر، والتي بدأت تأخذ صفة تيار عام بعد أن كانت جهودا فردية. وقد ظل هذا التيار العام ينمو حتى أصبح يمثل أقوى تيار فى الجزائر، بحيث تمكن هذا التيار (السلفى) الذى كان مجرد جهود فردية من أن يتغلب على كل التيارات المنحرفة، ويتغلب على الاستعمار الفرنسى نفسه، ويعود بالجزائر إلى الإسلام عقيدة وإلى العروبة لغة ... وليس هذا التيار سوى (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) صاحبة الفضل الأكبر فى تحقيق استقلال الجزائر .

وتأتى الحقيقة التاريخية الثالثة: وهى حقيقة تتعلق بالظروف المتشابهة فى النواحى العقدية والاجتماعية والفكرية فى كلتا المنطقتين .. فبينما كانت الجزيرة العربية خلال القرن الذى ظهرت فيه حركة الإمام ابن عبدالوهاب، كما يحدثنا مؤرخوها الثقات كابن بشر وابن غنام والألوسي مرتعا للخرافات والعقائد الفاسدة التى تتنافى مع أصول الدين الصحيحة .. ويحج فيها إلى القبور، ويطلب من الموتى الحاجات، ويستغاث بهم لدفع الكروب[٤].. بينما هذا... كانت الجزائر خلال العصر الذى بدأت تظهر فيه إشعاعات حركة الإمام ابن عبدالوهاب خارج الجزيرة، أي: خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر تعج بكثير من الخرافات وصور الوثنية وسيطرة الصوفية والمبتدعة على أرضها .

(٣) احمد عبدالغفور العطار،محمد بن عبدالوهاب ١٠١ .

(٤) انظر الشيخ محمد بن عبدالوهاب: أحمد أبو طامي ص ١٩ (نقلا عنه).

إنها ظروف متشابهة جمعت بين أرض الجزيرة فى آسيا، وأرض الجزائر فى أفريقيا ... وكما كانت صور الوثنية والتخلف والظلام سببا فى كثير من مراحل التاريخ.. لظهور دعوات التنوير والتوحيد؛ كذلك كانت هذه الظروف داعية لكى تتلقف الأرض العطشى فى الجزائر دعوة الإصلاح التى جاءتها من أرض الجزيرة العربية، لتردها إلى الكتاب والسنة مرة ثانية، كما حملتها إليها أول مرة .

أجل .. تلك حقائق تاريخية ثلاث لا يكاد المؤرخ يصل إلى درجة من الشك فيها، لكن هذه الحقائق ـ مع ذلك ـ لا تكفي (الباحث الحضارى) الذى يناط به بيان مدى إشعاعات الظاهرة (المؤثرة) فى الموجة (المتأثرة) لكى يصدر حكمه بوجود علاقة (التأثير والتأثر)، بل إنه يضطر أن ينهج منهج (عالم الاجتماع) الذى يجمع مفردات الظاهرة من حالات التوافق والتقارب المتناثرة هنا وهناك ليصدر ـ بعدها ـ رأيه.. راجيا فى النهاية أن تكون النتائج التى انتهى إليها أقرب إلى اليقين. وهذا ما نأمله بإذن الله .

عصـــر الإصـــلاح فى الجزيـرة العربية :

كان القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر المسيحى هو بداية عصر الدعوة الإصلاحية التى قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

وفى هذا القرن كان العالم الإسلامى يسير على النهج نفسه الذى سار عليه فى سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة مفاهيم مغلوطة على العقل الإسلامى، ومن تمزق سياسى وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعى.. بحيث اصبح ـ كما يسميه المفكر الجزائرى مالك بن نبي ـ فى حالة (القابلية للاستعمار)(٥).. إنها الحالة التى يتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز (بالبطالة) و (بالجهل) و (بالانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحدهما: فكرى والآخر نفسي.

ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير الكاتب الأمريكى (لثروب ستودارد) فيقول: «فى القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدنى

(٥) انظر شروط النهضة فصل (معامل القابلية للاستعمار) ص ٢٢٩ـ الطبعة الثالثة.

والانحطاط أعمق دركه، فاربد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى،واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة فى الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال»[٦].

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام ، فصار الحج المقدس الذى فرضه الله على من استطاعه ضربا من المستهزءات. وعلى الجملة بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطا بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان »[٧].

ونتيجة لهذه الحالة سيطر الضعف الحضارى والتفكك السياسى، بحيث لم ينته القرن إلا وكان الاستعمار يبحر بسفنه فى طريقه إلى تلك المنطقة التى توافر لديها (معامل القابلية للاستعمار).

كانت روسيا تتقدم إلى العالم الإسلامى من أركان مختلفة ، فقد زحفت على بلاد

---

(٦) حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٥٩.

(٧) المرجع السابق ٢٥٩ ، ٢٦٠.

فارس التى كانت مقسمة إلى أحزاب هى (الأفشار، والزند، والقاجار)، كما زحفت روسيا ـ أيضا ـ على بعض أملاك الدولة العثمانية فى أوربا، ولم يقتصر زحفها على هذين الركنين، بل إنها أخضعت سهوب (القرغيز) فعزلت خانيات التركستان الإسلامية وما وراء النهر، وخراسان الأوزبكية، واحتلت بلاد الكرج (جورجيا) متقدمة إلى ما وراء القوقاز. واستولت على جميع أملاك الترك شرق الدنيستر[٨].

أما فرنسا وبريطانيا فقد بدأتا فى هذا القرن سباقهما لتقسيم العالم الإسلامى الذى أصبح يمثل (الرجل المريض) ...

وكانت الشرارة الأولى هى: الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، وهجوم نابليون بونابرت ـ قائد الحملة ـ على الشام سنة ١٧٩٩م واستيلائه على يافا.

دعـوة الشيخ ابن عبدالوهاب وركائزهـا :

فى هذه الظروف ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى الجزيرة العربية، فكان أول داعية خلال هذا العصر يضع يده على مواطن الداء الحقيقى، الذى يتمثل فى طبيعة ما آل إليه بناء الأمة الداخلى فكريا وعقديا ونفسيا .. فبينما كان العالم الإسلامى مستغرقا فى هجعته ومدلجا فى ظلمته على النحو الذى صور «ستودارد» .. إذا بصوت ابن عبدالوهاب يدوى موقظا للنائمين، داعيا المسلمين إلى الرجوع إلى سواء السبيل.. فلم تلبث دعوته أن اتقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها فى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامى، ثم أخذ يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامى القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الإسلام[٩]. ولم تكن دعوة الامام محمد بن عبدالوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الإسلامية فى مصدريها الثابتين الخالدين: الكتاب والسنة الشريفة، ودعوة ـ فى الوقت نفسه ـ إلى التخلص مما خلفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء

(٨) أطلس العالم الإسلامى ص ٢٨.

(٩) استودارد: المرجع السابق ص ٢٦٠.

الانسان المسلم الداخلي... فأصبح مسلما (مشركا) (يقرأ القرآن و يؤمن بالخرافات) (و يصلى لله، و يتقرب لعبيده) إلى غير ذلك من الشوائب التى كانت سببا فى انحطاط المسلمين.

وبالتـالى، وانطلاقـا من نواحـى هذا الخلل، ركز محمد بـن عبدالوهـاب اهتماماتـه الإصلاحية على النواحى التالية:

أولا: تصحيح العقيدة الإسلامية فى فكر المسلمين، وتطهيرها من مظاهر الشرك التى علقت بها، وبإيجاز: إعادة المسلمين إلى عقيدة (التوحيد) كما وردت فى الكتاب والسنة دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل، أو تأو يل. و (التوحيد) لا يكون كذلك ـ فى الإسلام ـ إلا بتوحيد الربوبية، فلا خالق ولا رازق إلا الله، وبتوحيد الألوهية، فلا دعاء ولا نذر ولا استعانة إلا بالله، وبتوحيد الأسماء والصفات، فيوصف الله بما وصف به نفسه، واعتقاد أن الله (ليس كمثله شئ)، وقد بلغ من عناية الشيخ بالعقيدة حدا كبيرا لدرجة أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها، ومقاومة صور الإشراك فى كل كتاباته وخطبه ورسائله. وكانت العقيدة هى المحور الذى تدور حوله كل اهتماماته، وذلك بالاضافة إلى الكتب والرسائل التى تكاد تفرد لقضية التوحيد ككتابه (التوحيد) الذى جاء فى ستة وستين بابا.. سد فيها الشيخ كل منافذ الشرك. ورسالة (كشف الشبهات) ورسالة (ثلاثة الأصول)، ورسالة (القواعد الأربع)، وكتاب (فضل الإسلام) وكتاب (أصول الايمان) ومجموعة رسائله فى التوحيد والإيمان التى بلغت ثلاث عشرة رسالة. وكتاب الكبائر، ورسائله الإحدى وخمسين التى وردت فى تاريخ الشيخ ابن غنام الأحسائى، وفى الدرر السنية فى الأجوبة النجدية .. والتى تناولت جوانب خمسة تتصل كلها بالعقيدة، كبيان أنواع التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله، وما يناقضها من الشرك، والأشياء التى يكفر مرتكبها(١٠).

ثانيا : تصحيح عقيدة المسلمين ـ أيضا ـ فى مجالات التوسل والشفاعة والاستغاثة.

(١٠) انظر هذه الرسائل فى (القسم الخاص للرسائل الشخصية) من مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ طبع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية. وتنظر كذلك بقية أعمال الشيخ فى هذه الطبعة.

ثالثا : رفض الانحرافات التى أقحمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية) التى كانت من أقوى أسباب تخلف العالم الإسلامى .

رابعا : إنكار زيارة القبور والبناء عليها أو اللجوء إلى الموتى ـ مهما كان قدرهم ـ فى تحقيق أمر ... لأن هذا وثنية تدخل فى باب الشرك بالله. أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة.. بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شئ فيه .

خامسا : مقاومة الخرافات والبدع بكل أشكالها ، وأغلبها مما انتشر أيام الفاطميين فى المغرب (٢٩٨ ـ ٣٦١هـ) ومصر (٣٦١ ـ ٥٦٧ هـ)، ومن رواسب عصور التخلف. ومن هذه البدع التى أنكرها الشيخ: بدعة الاحتفال بالمولد النبوى، وبدعة المحمل، وغيرهما من البدع التى روجها الطرقية والشيعة.

سادسا : فتح باب الاجتهاد ـ عند توافر وسائله ـ وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة .

سابعا : ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التى خمدت فى نفوس المسلمين .

تلك هى أبرز الجوانب التى ركز الشيخ ابن عبدالوهاب عليها.. باعتبارها الأصول التى تحيا بحياتها بقية أركان الإسلام وآدابه وفروعه .

وقد حرصنا على ذكرها لتكون الأصل الذى نقارن به اتجاه الحركة الإسلامية الإصلاحية فى الجزائر .

جذور دعوة الإصلاح الاسلامى فى الجزائر :

ذكرنا أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا تزيد عن كونها دعوة إلى الإسلام الصحيح الذى جاء فى القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهى بهذا الإطار ليست بدعا فى

كل حركات الإصلاح؛ بل هي تلميذة ومتبعة لحركات الإصلاح السابقة، كحركة الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ)،وحركة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)، ومحمد بن قيم الجوزيه (٦٩١ ـ ٧٥١هـ).

وبالتالى : فإن لنا أن نستتنتج أن كل مورثات الإسلام الصحيح الذى يطلق عليه - عادة - (الاتجاه السلفي) - والتى كان لها بالتأكيد - وجود كبير فى الجزائر منذ دخل جيش التابعين الذى فتحها بقيادة أبى المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢ هـ).

... هذه الموروثات النبوية الصحيحة قامت بدور كبير فى التمهيد لانتشار دعوة الإصلاح الاسلامي فى الجزائر خلال القرن الرابع عشر للهجرة ، والتى كان رائدها الأول فى التاريخ الاسلامى الحديث هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

ويلخص أحد الكتاب الجزائريين المعاصرين - صادقا - حقيقة (الدعوة السلفية) فيقول: إنها لاتزيد عن كونها التطبيق الصحيح للحديث النبوى الشريف الذى ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام - فى خطبة الوداع حين قال: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[١١] ... ويرى هذا الكاتب الجزائرى: أن (السلفية) بهذا المعنى ذات امتداد أصيل فى الجزائر، وأنها ماكان لها أن تظهر كحركة مستقلة تبدو وكأنها (مذهب اسلامى) الا لأن الناس ابتعدوا عن حقيقة الاسلام، بعد أن ظهرت مختلف المذاهب البدعية التى تنتمي إلى ملل ونحل بعيدة عن الاسلام، والتي كان من بينها مذهب التصوف، الذى أسرف بعض أئمته وتغالوا فى الدعوة إلى التحرر من التقاليد وإسقاط التكاليف، وزاد الأمر تعكرا عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق أقبل عليها كثير من العوام .. فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم، وانضم اليهم المحدثون ... فاتهموا المتصوفة بالمروق عن الدين، وبأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير اسلامية[١٢] .

(١١) المهدى البوعبدلى مقال، (عبدالرحمن الأخضرى وأطوار السلفية فى الجزائر بمجلة الأصالة الجزائرية عدد صفر ١٣٩٨هـ (برقم ٥٣).

(١٢) المقال السابق.

ويرى الكاتب (وهو من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويشغل الآن منصب نائب رئيس المجلس الاسلامي الأعلى)أن تاريخ السلفية بالجزائر بعود - بعد الأجيال الأولى - إلى الفقية الجزائرى أبي الفضل النحوى، من علماء القرن الخامس الهجرى، ودفين قلعة بني حماد، العاصمة الأولى لدولة بني حماد الزيرية الصنهاجية الجزائرية التى حكمت الجزائر بين عامي ٤٠٥هـ - ٥٤٧هـ.

وفي القرنين السابع والثامن للجهرة ظهر مصلح سلفى آخر انتشرت آراؤه الإصلاحية فى الجزائر، وهو أبو الحسن علي بن عبد الحق الزويلي الشهير بالصغير.. ومع أن المغرب والأندلس بصفة عامة يغلب عليهم مذهب الإمام مالك.. إلا أن المصلح الصغير دعا إلى فتح باب الاجتهاد، متأثرا - فيما يبدو - بمعاصرة الإمام ابن تيمية الذى عمت شهرته العالم الاسلامي .. وقد توفى ابن الصغير سنة ٧١٩ هـ، أى : أنه عاصر ابن تيمية قرابة ستين سنة .

وكان من تلامذة المصلح الصغير تلميذ سار على دربه وحمل دعوته، وهو العالم الجزائرى الحافظ ابن مرزوق الحفيد - من علماء القرن الثامن - الذى كان يشيد بأستاذه، وقد رد على معاصر جزائرى له يدعى قاسم العقبانى التلمساني - كتب رسالة ينتصر فيها لمتصوفة زمانه ... وقد سمى ابن مرزوق رسالته: «النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص»... وعقب هذا دارت معركة بين الاتجاهين السلفي والصوفي أرخت لها كتب النوازل (الوقائع) ككتاب: «الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريس المجموعة في (المعيار) . وقد شارك فى المعركة كثير من الجزائريين منهم (عبد الرحمن الوغليس) فقيه بجايه[١٣] المشهور، وسعيد العقباني التلمساني، وعيسى الغبرينى البجائى ابن أحمد الغبرينى صاحب كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية»[١٤] .

(١٣) وبجاية: مدينة بالشرق الجزائرى كان لها من ماض حضارى مزدهر وفيها تعلم ليوناردافنشى وكانت عاصمة الجزائر ووريثة القيروان مدة قرن من الزمان .

(١٤) طبع هذا الكتاب طبعتين: احداهما: جزائرية والأخرى لبنانية ... وعندى نسخة من الطبعة الجزائرية.

وخلال القرنين التاسع والعاشر للهجرة اتخذت الدعوة السلفية قاعدتها بنواحي بجاية في الشرق الجزائرى، وكانت قرية (تامقرة) المنطلق الأساسي للدعوة، اذ كانت هذه القرية تضم منارة علمية جزائرية عالية المكانة، وهى: (معهد يحيى العبدلي)، وفى هذا المعهد نبغ العالم السلفي (أحمد زورق) بعد إقامته الطويلة بين تلمسان (بالمغرب الجزائرى) والعاصمة قسنطينة، وما شاهده من شيوع فوضى العقيدة التى أدخلها العوام وركب موجتها المشعوذون من محترفي المتصوفة، وقد ساعد (أحمد زورق) على النجاح استقامته ونزاهته وتضلعه فى علوم الحديث والتفسير والفقه، فضلا عن تأثيره فى مجموعة من الطلبة الذين حملوا رسالته، على رأسهم ابن على الخروبى ـ دفين الجزائر، وهو ممن أخذوا الدعوة السلفية عن الشيخ أحمد زورق .

وقد ترك «الخروبي» تأثيره على أسرة جزائرية اشتهر معظمها بالسلفية، وهي أسرة الأخضرى التى نبغ فيها عالم سلفي جليل هو (عبدالرحمن الأخضرى) المتوفى سنة ٩٥٣، والمولود (ببنطيوس الزاب) بالشمال الغربي الجزائرى، وكانت له رسائل فى الفلك ككتابه (السراج فى الفلك) و (أزهار المطالب فى علم الاسطرلاب)،وتربو تآليفه في بقية الفروع على الثلاثين[١٥] .

ولكي نعرف قيمة الدعوة السلفية التى قام بأعبائها (عبد الرحمن الأخضرى) فإنه يجب أن نتصور حالة الجزائر فى ذلك العصر، أى : خلال القرن العاشر الهجرى، فإن بجاية (العاصمة الحضارية للجزائر) كانت قد سقطت بيد الأسبان، وبدأت مدن الساحل الشمالي الجزائرى كله تتداعى أمام أساطيلهم، كتنس، ووهران، ودلسي وغيرها، وللأسف فإن رجال الصوفية كانوا عونا للغزاة ولرؤساء الإقطاع الظلمة ، وتسببوا فى مزيد من الانهيار .

وقد قام (عبدالرحمن الأخضرى) بالتصدى لهم وكشف ضلالهم فى عدد من القصائد احداها تسمى (القدسية) وتحتوى على ٣٥٧ بيتا. وفيها يقول عن الصوفية :

(١٥) المهدى البوعبدلي : مرجع سابق ص ٢٥.

قد ادعو مراتبا جليلــــــــــة والشرع قد تجنبوا سبيلــــــــــه
قد نبذوا شريعة الرســـــــــــول فالقوم قد حادوا عن السبيــــــــل
لم يدخلوا دائرة الطريقــــــــــة فضلا عن دائرة الحقيقــــــــــة
لم يقتدوا بسيد الأنــــــــــام فخرجوا عن ملة الإســــــــلام
قد ملكت قلوبهم أوهــــــــام فالقوم إبليس لهم إمــــــــام
كفاك من جميعهم خيانـــــــــة إذ ختلوا الدنيا بالديانـــــــــة

الى أن يقول :

من كان فى نيل الأماني راجيـــــــا وعن شريعة الرسول نائيـــــــا
فإنه ملتبس مفتــــــــــــون وعقله مختبل مجنــــــــــــون

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقى فيصفه بقوله:

واعلم بأن الولي الربانـــــــــى لتابع السنة والقــــــــــرآن
والفرق بين الإفك والصــــــــواب معرف بالسنة والكتـــــــــاب
والشرع ميزان الأمور كلـــــــها وشاهد لأصلها وفرعهـــــــــا
والشرع نور الحق منه قد بـــــدا فانفجرت منه ينابيع الهـــــــدى

ثم ينتقل الى وصف حالة البلاد اذ ذاك فيقول :

هذا زمان كثرت فيه البـــــــدع واضطربت عليه أمواج الخـــــدع
وخسفت شمس الهدى وأفلـــــت من بعدها قد بزغت وكملـــــت

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة، أهمها شرح الحسين الورتلاني صاحب الرحلة، لأنه ألقى فيه أضواء على حالة المجتمع الجزائرى وأحصى تأثير العادات السيئة التى ألصقت بالدين .

وعلى خطى (الأخضرى) ظهر أعلام آخرون عززوا الاتجاه السلفـي وذلك خلال القرنين الحادى عشر والثاني عشر للهجرة، ومنهم الشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطيني المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ ، وصاحب كتاب (منشورات الهداية فى كشف حال

من ادعى العلم والولاية)،وهو كتاب من أحسن ما ألف فى بابه، بل فريد في بابه كما يقول الشيخ البوعبدلي .. وهو يبين هدفه من الكتاب فى مقدمته، فيقول: «أما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أطلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعي من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائمة .. وروائح السلب والطرد من المولى فائحة .

وقد ظهرت خلال العصر بعض (المنظومات) التي اقتفت أثر منظومة الأخضرى (القدسية) كمنظومة عبد الرحمن بن محمد علي المجاجي، وظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد بن حواء من علماء القرن الثاني عشر، وقد سماها «سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان» تعرض فيها لتراجم علماء الجزائر، وتكلم عن البدع المنتشرة .

ثم ظهرت رسالة للشيخ / محمد بن عبدالله الجلالي.. كتبها إلى زميله فى الدراسة بفاس الشيخ/ أحمد التيجانى[١٦].. مؤسس الطريقة التيجانية عندما أبلغه أنه بصدد انشاء الطريقة التيجانية، فأرسل اليه ينهاه ويحذره من مغبة ذلك، وينصحه بالاقتداء بالسلف الصالح والبعد عن الطرقية.. ولكن ذلك لم يكن له تأثير فى الشيخ التيجاني، ومضى فى سبيله!!

ونحن نستطيع بعد هذا الذى أوردناه أن نقول: ان ثمة حقيقة مؤكدة هي أن كل هذه الجهود التي بذلت فى الجزائر لعودة المسلمين إلى الاسلام الصحيح .. حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة والتي ألمعنا إلى بعضها كانت أشبه بجهود فردية، ولم تصل إلى مستوى (التيار العام) المؤثر، بل ان العكس هو الصحيح، فالتيار العام المؤثر والشائع كان تيار الطرقية الصوفية، والخرافات والبدع، والاستغاثة والتوسل والشفاعة لغير الله، والتعصب المغالى فيه لمذهب الإمام مالك، لدرجة أن المغرب كله يكاد يخلو من المذاهب الأخرى ومن المجتهدين المتصلين اتصالا مباشرا بفقه القرآن والسنة .

(١٦) انظر المرجع السابق.

ونتيجة للسيطرة الطاغية التي يتمتع بها الصوفية وغيرهم من المبتدعة، كان أكثر المصلحين الذين ظهروا خلال القرون المنصرمة يميلون إلى لون من (الإصلاح) لايذهب بهم إلى درجة الصراع المباشر الواضح مع الصوفية، فكان بعضهم يعمد إلى القول بأنه إنما يريد تنقية الطرق الصوفية وتقويمها، وقد ألف (أحمد زورق)- الذى تحدثنا عنه- كتبا من هذا القبيل مثل (قواعد التصوف) و (أصول الطريقة) و (كتاب البدع) .. كما أن عبد الرحمن الأخضرى نفسه - صاحب المقطوعات الطويلة فى تصحيح العقيدة ومقاومة البدع يورد نظما نحس منه وكأنه يستميل الصوفية فيقول:

وقال بعض السادة الصوفيـــــة	مقالة جليلة صفيـــــة
اذا رأيت رجلا يطيــــــر	أو فوق ماء البحر قد يســــير
ولم يقف عند حدود الشــــرع	فإنه مستدرج وبدعــــى

وفى إطار هذا المستوى من الفردية والإصلاح الجزئي المحدود، يجب أن نضع كل المحاولات التي سبقت تيار السلفية العام القوى الذى سيطر على الجزائر ممثلا فى جيل جمعية العلماء المسلمين الجزائرين، وفيمن سبقه من رواد مهدوا له بعد أن تأثروا بالدعوة الاصلاحية التى قامت فى جزيرة العرب .

دخول حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الجزائر :

مع تلك التخوم التي تفصل بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، بدأت إشعاعات حركة الاصلاح فى الجزيرة تنفذ إلى الجزائر عبر منافذ متعددة سوف نتعرض لها بالبحث .

وكان أول من حمل الدعوة إلى الجزائر المؤرخ الجزائرى (أبو راس الناصرى)[١٧] الذى قدر له أن يجتمع بالامام محمد بن عبد الوهاب فى موسم الحج، ويذاكره فى أمور انتهى بعدها إلى الاقتناع باتجاه حركة الشيخ ابن عبد الوهاب، وكان ذلك بحضور وفد الحجيج المغربي الذى كان يرأسه ولي عهد المغرب آنذاك .

(١٧) الاصالة عدد(٥٣)الشيخ المهدى البوعبدلى.

وقد أشاد المؤرخ (أبوراس) بآراء ابن عبد الوهاب عندما دون تفاصيل رحلته للحج بعد عودته إلى الجزائر .

والحق أنه بعد (أبى راس) كان من الممكن أن تنفذ حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى الجزائر فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة من طرق أقوى وأفسح مجالا.. إلا أن تطور الظروف على النحو الذى أدى إلى وقوع الجزائر تحت قبضة الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) حال دون ذلك .

نقول... إنه كان من الممكن حدوث ذلك التأثير لولا هذا الحدث الكئيب، بل إننا لنعتقد أن ذلك كان أمراً توجبه طبيعة الأمور، ولاسيما أن تلك الحركة التجديدية الكبرى التى أصبحت تنتسب إلى ليبيا، وهى الحركة السنوسية، كانت حركة جزائرية الأصل، فإن إمام هذه الحركة السيد/ محمد بن على السنوسى الخطابى إنما هو جزائرى ولد فى بلدة مستغانم بالغرب الجزائرى سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧م) ، ولولا أن العثمانيين - من جانب - قد تربصوا به، وراقبوه على امتداد الحواضر المغربية كلها، ثم ظهر الفرنسيون منذ ١٢٤٦ فتربصوا به وبكل حركة تجديد - من جانب آخر - لولا هذا المكان أمراً طبيعياً أن تكون الجزائر هى محضن الحركة السنوسية ولما اضطر السيد السنوسى إلى اللجوء إلى الصحراء وإلى واحة جغبوب من أرض ليبيا.

وان التشابه فى كثير من الأسس بين حركتى الشيخ محمد بن عبدالوهاب والسيد محمد السنوسى لا يحتاج إلى دليل، فالدعوتان - كما يقول الأستاذ العقاد « تتشابهان فى حماسة الدعوات وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة »[١٨].

أما تعرف السيد السنوسى على الدعوة الوهابية فقد تم له حين جاب بعض بلدان

(١٨) الاسلام فى القرن العشرين ص ٨١، طبع نهضة مصر.

العالم الإسلامى كالمغرب ومصر وتونس، وحين ذهب لأداء فريضة الحج[١٩]. « حيث بقى مدة يأخذ من أساتذتها الوهابيين »[٢٠].

ومع ذلك فنحن لم نعدم أن نجد فى الجزائر ـ خلال القرن الثالث عشر ـ بالرغم من كل الظروف التى وقعت تحتها إشعاعات سلفية نفذت إما عن طريق الاتصال بمدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى الجزيرة مباشرة، وإما عن طريق تأثير الدعوة السنوسية الجزائرية الأصل والقريبة من الحدود، وإما عن طريق الجامعة الزيتونية التى تعلم فيها كثير من الجزائريين،وقد ظهرت فى قسنطينة بالشرق الجزائرى ـ خلال هذا القرن ـ حملة ضد البدع والخرافات، وكان مركزها (نادى صالح باى) الذى ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ (ابن الموهوب) سلسلة محاضرات ضد الخرافات والبدع.

كما ظهر بقسنطينة ـ أيضاً ـ العالم السلفى الشهير (صالح بن مهنا) الذى كان قد تخرج من الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة.. وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسطنطينة وكتب رسالة يهاجم فيها شيوخ الطرق الذين يسميهم الناس (الأشرأف) حينما بالغ فى تعظيمهم بعض المنحرفين، وسمى رسالته «تنبيه المغترين فى الرد على إخوان الشياطين».. ومما جاء فى رسالته عن هؤلاء الأشراف « أن من خالف السنة والشرع غير معتبر ولو كان مدعيا للصلاح أو الشرف أو العلم.

وان الشريف الفاسق لا يعتبر حتى ولو أنكر ذلك بعض الأرذال ممن قرأ مسألتين، وتعلم باب مسح الخفين »[٢١] !!

وقد أحدث صالح بن مهنا وكتابه ضجة كبيرة، وثارت عليه طائفة المتصوفة والدجالين، وألفوا فى الرد عليه الرسائل والكتب وسبوه بقصائد كثيرة.

(١٩) انظر المهدية مريم المجدلية: الاسلام بين النظرية والتطبيق ص ١٠٦ مكتبة الفلاح بالكويت ومحمد السلمان: رشيد رضا ٦٦ (ماجستير) بكلية العلوم الاجتماعية.

(٢٠) ستودارد: حاضر العالم الاسلامى ٢٥٩/١، وانظر كمال جمعة: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ٢١٦

(٢١) البوعبدلى مرجع سابق ٣١.

طريق الجزائر إلى الإسلام الصحيح

وفى سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧م) استسلم الأمير عبدالقادر الجزائرى بعد مقاومة للاحتلال الفرنسى استمرت سبعة عشر عاما، ضرب فيها أروع أمثلة البطولة الإسلامية التى أعادت ذكرى بطولات المسلمين الأول من فاتحى افريقية والمغرب، وتحمل فيها من المشاق ما نوه به المؤرخون الفرنسيون أنفسهم.

وباستسلام الأمير عبدالقادر فرضت فرنسا أبشع إجراءات الاضطهاد وأقسى أنواع الملاحقة للإسلام الصحيح واللغة العربية، وبذلت جهوداً كبيرة فى سبيل طمس معالم الحضارة الإسلامية فى الجزائر، سواء بواسطة المبشرين النصارى أو بواسطة اجراءات (الفَرْنَسَة) التى ترمى إلى إزالة كل ما هو إسلامى وعربى.

وفى الوقت نفسه سلطت فرنسا على الجزائر المسلمة قوافل (المتصوفة) ينشرون البدع والخرافات ويحاربون كل بادرة وعى إسلامى صحيح !!

وقد زاد الطين بلة أنه خلال السنوات الأخيرة من هذا القرن احتلت فرنسا تونس سنة (١٢٩٩هـ) واحتلت إيطاليا ليبيا فى العقد الثالث من القرن التالى !!

ولقد بدأ من خلال هذه الأسوار العالية المحكمة أن إسلامية الجزائر وعروبتها فى محنة شديدة، وكان يخيل لبعض المؤرخين أن تاريخ الجزائر سيتجه الى الفرنسية والتغريب أكثر من اتجاهه إلى الاسلام والتعريب. أما الفرنسيون فكانوا يعتبرون الجزائر (ولاية) فرنسية إلى الأبد !!

لكن الحقيقة أن هناك منافذ مضادة، اذ لم يكن المؤرخ العجل قادرا على إبصارها، فان الباحث الحضارى كان باستطاعته أن يلمسها وأن يحس بآثارها الهادئة البطيئة والحاسمة فى الوقت نفسه!!

إنها منافذ تتصل بطبيعة الحضارة الاسلامية نفسها فى الدرجة الأولى.

فإن فرنسا على كثرة ما اتخذت من إجراءات ـ لم تستطع أن تلغى ـ كل الإلغاء ـ أداء المسلم الجزائرى لركن من أركان دينه وهو الركن الخامس من أركان الاسلام « الحج ».

ولما كانت حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بقوتها وريادتها ونقائها قد نشأت فى البلد الذى تؤدى فيه شعيرة الحج، فقد أدى هذا الارتباط دوراً كبيراً فى نشر الدعوة على امتداد العالم الاسلامى كله.

فعن طريق «الحج»[٢٢] انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى الهند والبنجال بواسطة السيد أحمد شهيد بريلى وزميله الشهيد اسماعيل، والحاج شريعة الله البنجالى، ونزار علي.

وعن طريق الحج انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى جاوة وأندونيسيا بواسطة الزعيم (توانكونان رنتجة) و(الحاج مسكين) و (البدرى).

وعن طريق الحج انتشرت الدعوة فى افريقيا على يد الشيخ عثمان بن فودى.

وقد أوجز أحد الكتاب المعاصرين التأثير العام للحج فى نشر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية، فقال:

« انتشرت دعوة الشيخ فى خارج نجد من أجل استيلاء الدولة السعودية على مكة المكرمة سنة ١٢١٨، وأصبح حجاج البلاد الاسلامية يفدون إلى مكة المكرمة ويشاهدون علماء هذه الدعوة الحقة، ويستمعون خطبهم ومواعظهم وإرشاداتهم السديدة وتوجيهاتهم القيمة.. فتأثر بعض الحجاج بدعوة الشيخ فأخذ ينشر فى بلاده التوحيد ويحارب

(٢٢) انظر محمد كمال جمعة: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة ٧٣، ٨٠، ٨٤، ٩٠، ٩٤، ٩٩، ١٠٦ وغيرها.

الخرافات الشائعة فى بلاده، فانتقلت ـ بهذا ـ مبادئ الدعوة الى السودان والهند وسومطرة والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوة وعمان وفارس »[٢٣].

وهكذا فان طريق الحج كان واحدا من أهم الطرق التى عبرت من خلالها دعوة الشيخ إلى الجزائر، متخطبة تلك الأسوار القوية التى أقامها الاستعمار الفرنسى!

والطريق الثانى الذى اخترقت به الدعوة هذه الأسوار هو (طريق معنوى) لم يستطع الاستعمار الفرنسى أن يفهمه لأنه لا يستطيع بتركيبه المادى الغربى أن يفهم بناء الاسلام ولا طبيعته الروحية.

إننا نستطيع أن نطلق على هذا (الطريق المعنوى) مصطلحات متعددة، وكلها صالحة للتعبير عن حقيقته.. انه (الشعور الاسلامى الواحد) أو هو (الأخوة الاسلامية) أو هو (الروح الاسلامية).. فالمسلمون على العكس من كل أتباع الأديان الأخرى تنتظمهم مشاعر واحدة، حتى ولو فرقت بينهم أهواء الساسة، وأن المسلم ليتألم ويفرح لكل ما يصيب أخاه المسلم، مهما كان بعيدا عنه.. وهم يتبادلون التأثير والتأثر كما تنتشر الموجات الكهربائية.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة ـ بطريقة غير مباشرة ـ (السير توماس أرنولد) فيما يتعلق بتأثير حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى العالم الاسلامى كله فاعتبرها أول (عاملين) يؤثران فى انتعاش الحياة الاسلامية فى العصر الحديث « فان تأثيرها الدينى ملموس فى كافة أنحاء افريقيا والهند والملايو الى الوقت الحاضر، وان ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته فى النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بنته فى الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر المنسكبة من روح دافعة.. إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الاسلام الفطرية »[٢٤].

أما ثانى العاملين الذين ذكرهما (أرنولد) فى مجال انبعاث النهضة الاسلامية

(٢٣) أحمد بن حجر أبو طامى والشيخ محمد بن عبدالوهاب ٧٩ .

(٢٤) الدعوة إلى الاسلام ٤٦٨ ص ٣١ طبع نهضة مصر.

الحديثة، فهو (عامل) يقول عنه إنه من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف، وهو (عامل حركة الوحدة الاسلامية التى تسعى الى ربط جميع شعوب العالم الاسلامى برباط مشترك من المودة والتعاطف)[٢٥].

وبالطبع فان (أرنولد) ـ كسائر الأوروبيين ـ لم يستطع أن يدرك أنه لا خلاف بين العاملين، بل إن العاملين يكمل أحدهما الآخر، فالشعور الإسلامى الواحد هو أقوى جسر تعبر عليه كل موجات الاصلاح الاسلامى الحقيقى، وعليه عبرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية الى بلدان العالم الاسلامى واخترقت أسوار الاستعمار النصرانى!

أما الطريق الثالث فهو طريق يتصل بالطريق السابق، وإن كان أكثر مباشرة ووضوحاً.

فبينما كانت الجزائر محاطة بسور الاستعمار الفرنسى ارتفعت فى العالم الإسلامى دعوة أطلق عليها بعضهم اسم (الوهابية الجديدة) كما أطلق عليها ـ أيضا ـ دعوة «الجامعة الاسلامية».. مما يدل على الترابط بين الدعوتين،وكان قائد هذه الدعوة هو السيد جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ) أحد المتأثرين بالشيخ محمد بن عبدالوهاب عن طريق أدائه فريضة الحج سنة ١٢١٣ هـ وعن طريق مجيئه الى الهند وسماعه عن أثر الوهابيين، ولذلك اتهم من قبل أعدائه بأنه وهابى، بل روى أنه هم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية[٢٦] عن كثب. ويقول (جب): ان جهود جمال الدين كانت لها نتائج متينة راسخة.. إذ نشرت فى كافة أرجاء البلاد الإسلامية المبدأ الوهابى القائل بضرورة التعلق بالصفاء المذهبى وإعادة تأكيد المذهب السنى القرآنى[٢٧].

وكان لجمال الدين الأفغانى تلميذان، وضحت فيهما دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أكثر منه وكانا واسطتها الى الجزائر خاصة ـ على نحو لم يستطعه هو أو لم

---

(٢٥) المكان السابق.

(٢٦) العقاد الاسلام فى القرن العشرين ٨٩.

(٢٧) نقلا عن: محمد السلمان: رشيد رضا (مخطوط) ١٤٣.

يسع اليه وهما: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ)، والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ) ـ وقد استطاعت هذه المدرسة (الأفغانية) أو مدرسة (العروة الوثقى) كما أطلق عليها بعضهم.. أن تحمل دعوة الإصلاح السلفى إلى الجزائر والعالم الاسلامى فى وقت خلت فيه الساحة من المصلحين الأقوياء.

وقد كانت مجلة العروة الوثقى.. ثم مجلة المنار ـ من أكبر المجلات المدافعة عن اتجاه العودة الى الاسلام الصحيح. وقد أتيح لهاتين المجلتين من الانتشار ما لم يتح لغيرهما، وكان الزود عن حياض دعوة الشيخ ابن عبدالوهاب واضحاً فيهما، ولاسيما فى المنار[٢٨] التى استطاعت أن تدخل الى الجزائر والى بقية بلدان الشمال الأفريقى، منذ سنتها الأولى حتى أنه فى سنتها الخامسة ذكر أحد القراء فى تونس أن العدد الواحد من مجلة المنار يدار على عشرات الناس فى البيوت[٢٩].

ولعل أكبر دليل على حسن انتشار المنار فى بلاد شمال افريقية أن الشيخ محمد عبده حينما قام بزيارة الى تونس والجزائر عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) شاهد هناك الأثر الكبير الذى أحدثته مدرسة المنار ممثلة فى مجلتها، وتأثير ذلك فى نشر الأفكار الاصلاحية[٣٠].

وهكذا، فعن طريق هذه المعابر الحضارية الاسلامية، تحطمت أسوار الاستعمار الفرنسى الرهيبة، وظهرت حركة (إسلامية صحيحة) شقت طريقها وسط كل الظلمات والعقبات حتى أصبحت التيار العام المسيطر والمؤثر.

بوادر النهضة الإصلاحية الحديثة بالجزائر :

لم تنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهذه المبادئ الواضحة والقوية فى عام واحد. وهو العام الذى احتفل فيه الاستعمار الفرنسى بمرور قرن على احتلاله للجزائر سنة (١٩٣٠م) احتفالا أساء إلى الشعور الإسلامى، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين !!

(٢٨) انظر السلمان: رشيد رضا (١٩٠) وما بعدها.

(٢٩) المرجع السابق ٣٦٧.

(٣٠) السابق ٣٦٨.

فالحق أن إساءات الفرنسيين للشعور الإسلامى كانت تتكرر فى كل يوم من أيام احتلالهم للجزائر، كما أنه ليس من طبيعة الأشياء أن بلدا يعيش فى ظروف الجزائر تظهر فيه الدعوات المنظمة الواضحة المبادئ والأهداف طفرة وبدون اعداد جيد لخمائر الوثبة المنشودة .

ومن هنا يبدو صدق ما ذهبنا إليه من أهمية تأثير المعابر القوية الثلاثة السابقة، كما يدل على ذلك ـ أيضا ـ بوادر النهضة الاصلاحية التى ظهرت بشكل فردى ـ خلال هذه الفترة الصعبة ـ قبل بروز جمعية العلماء الجزائريين .

كان الشيخ (عبدالقادر البجاوى) (١٨٤٨ـ١٩١٣م) ـ١٢٦٥ـ١٣٣٢هـ ـ فى طليعة هؤلاء الذين ظهروا خلال هذه الفترة متفاعلين مع قضية الاصلاح الاسلامى ـ كأساس لتحرير الجزائر من الاستعمار ـ ويطلق صديقنا الدكتور (تركى رابح)[٣١] على (البجاوى) عبارة (دائرة معارف) لكثرة تحصيله، وغزارة علمه، وتنوع معارفه، ومشاركته فى كل فن بطرف[٣٢] .

وقد عاش البجاوى للعلم والتعليم، فتخرج عليه عدد هام من العلماء الجزائريين كان من بينهم الشيخ (حمدان الونيس) الأستاذ الأول للشيخ عبدالحميد بن باديس، ورئيس جمعية العلماء.

وقد ترك «البجاوى» عدة مؤلفات سلفية منها شرح «منظومة اللمع فى انكار البدع» نظمها تلميذه السلفى المولود بن الموهوب، وحمل فيها حملة شعواء على البدع والطرقية. ومن هؤلاء الشيخ أبو القاسم الحفناوى الشاعر والمؤرخ، وكان كاتبا بليغا وباحثا مدققا، مشتغلا بالتعليم والتأليف إلى أن مات .

---

(٣١) أخطأ الأستاذ محمد كمال جمعة صاحب انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فأطلق عليه اسم (تركى براع) ص ٢٤٤ والصحيح ما ذكرناه، وهو أستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر.

(٣٢) عبدالحميد بن باديس: فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ص ١٠٦ نشر الشركة الوطنية بالجزائر.

ومنهم الشيخ مصطفى بن الخوجة (١٨٦٥ـ١٩١٥م)(١٢٨٢ـ١٣٣٤هـ ـ وهو من خيرة أتباع الشيخ محمد عبده، وعلى رأس مدرسته فى الجزائر، وقد ألف كتابا عن حقوق المرأة فى الإسلام أسماه «الاكتراث فى حقوق الإناث»[٣٣].

ومن أبرز هؤلاء «عمر بن قدور الجزائرى» الذى لقب برائد الدعوة إلى التضامن الاسلامى ـ على الرغم من أسوار الاستعمار الفرنسى ـ وتوفى سنة (١٩١٥م) (١٣٣٤هـ) بعد حياة طويلة حافلة بالجهاد والشجاعة. وكانت له مقالات كثيرة نشرها فى داخل البلاد وخارجها، ونشر بعضها فى الآستانة جريدة الحضارة، وبعضها فى اللواء والمؤيد بالقاهرة. وقد دعا إلى مشروع أطلق عليه اسم «جماعة التعارف الإسلامى» ليكون نواة لتحقيق تضامن الأمة الإسلامية. وكانت لعمر بن قدور نظرات سديدة تدور فى فلك المدرسة الإصلاحية، فقد كان يرى أن الجهل ـ أولا ـ وتسلط أجنبى ـ ثانيا ـ هما سبب ما أصاب الأمة الإسلامية من ويلات، وعنهما نشأ فريقان ابتليت بهما الأمة: فريق جامد متحجر وهم العلماء الجامدون الذين قيدوا الفكر الإسلامى عن الاجتهاد والانطلاق، وغلوا المسلمين فى سلاسل الخرافات والبدع، وألقوا بهم عند أعتاب الأولياء جثثا لا حراك بها يقعدهم عن العمل التوكل والزعم بالتسليم بالقضاء والقدر، أما الفريق الثانى: فهو فريق الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الأوربية[٣٤].

ومن هؤلاء المصلحين الذين مهدوا لظهور تيار جمعية العلماء ـ الأستاذ محمد بن أبى شنب ـ ١٢٨٦ـ ١٣٤٨هـ(١٨٦٩ ـ ١٩٢٩م)، وهو من أهم الشخصيات المثقفة، المؤمنة بإسلامها الساعية إلى التمسك به، وبالحفاظ على اللغة العربية.. وقد ظل يعمل فى إطار بعث الثقافة الإسلامية الصحيحة ونشر اللغة العربية قرابة نصف قرن .

ومن أبرز زعماء هذه المرحلة الشيخ عبدالحليم بن سماية ١٢٨٣ـ١٣٥٣هـ (١٨٦٦ـ١٩٣٣م) ويقول عنه الدكتور (رابح) إنه من العلماء القلائل الذين نشروا الفكرة السلفية فى الجزائر، وكان يدرس (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده .

(٣٣) المرجع السابق ١٠٧، ١٠٨.

(٣٤) د. محمد نصر. عمر بن قدور: رائد الدعوة للتضامن الاسلامى: الأصالة ٥٨.

وقد ذكره الشيخ رشيد رضا فى كتابه «تاريخ الإمام محمد عبده» على أنه ممن اجتمع بهم الإمام محمد عبده عند زيارته للجزائر سنة ١٩٠٣م[٣٥]. كما يتحدث عنه المؤرخ الجزائرى المعاصر (عبدالرحمن الجيلالى) فيقول: إنه كان أول من أسرع إلى استقبال الشيخ محمد عبده، وملازمته ليلا ونهارا، ومدحه بقصيدة نشر بعضها فى مجلة المنار فى عددها الصادر يوم ٦ ذى القعدة ١٣٢١هـ وقدم لها صاحب المنار بقوله: «إنها قصيدة عالم جزائرى؛ بل أشهر علماء الجزائر مدح بها الأستاذ الامام وأرسلها إليه فى القاهرة .. فسرنا منها أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم ببعض فى الأقطار المتباعدة»[٣٦].

كذلك ينبغى أن نشير إلى المرحوم (عمر راسم) ونشاطه الإصلاحى فقد كان هو الآخر متأثرا بالشيخ محمد عبده والمدرسة السلفية»[٣٧].

ولا شك أن هناك كثيرين غير هؤلاء، قاموا بدور كبير خلال هذه الفترة، حتى إذا ما جاءت سنة ١٩٣٠م ـ التى مثلت حدثا غير عادى بالنسبة لشعب مسلم مقهور ـ محروم عن التعبير عن ذاته المسلمة ولسانه العربى منذ قرن كامل .. حتى إذا ما جاءت هذه السنة، ووقف الحاكم الفرنسى «ينعى الى الحضارة إسلام الجزائر إلى الأبد» دون اكتراث بمشاعر الجزائريين... قام المصلحون السلفيون يتحدونه ، ويقول امامهم ابن باديس:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب

وظهرت فى ساحة الجهاد ـ جمعية العلماء الجزائريين، تحارب الخرافات والبدع وتجمع الجزائريين على الإسلام الصحيح... لأنه ـ وحده ـ الطريق الصحيح.

---

(٣٥) د. تركى رابح: مرجع سابق ١٠٨.

(٣٦) انظر: الجيلالى: جوانب من كفاح الشيخ عبدالحليم بن سماية ـ عدد ١٣ من الأصالة الجزائرية.

(٣٧) تركى رابح: الأصالة عدد ٢٤ ربيع الأول ١٣٩٥هـ.

مؤسس جمعية العلماء والسلفية:

لكن السؤال الذى يفرض نفسه ـ عند هذه النقطة ـ على الرغم من كل التأثيرات العامة والأساسية التى ذكرناها ـ هو كيف وصلت السلفية الإصلاحية التى قامت حركتها الأخيرة على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى مؤسس جمعية العلماء الجزائريين. هؤلاء الذين قادوا الجمعية ووجهوها إلى ما آمنوا به. والحقيقة أن كثيرا من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسة الامام محمد بن عبدالوهاب بشئ من التلقائية، وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه[٣٨]. والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين الأوربيين[٣٩].

لكننا مع ذلك نؤثر تتبع وصول السلفية الى الجمعية وروادها عبر جداولها الخاصة إلى جانب الروافد العامة التى تحدثنا عنها .

والمعروف أن الشيخ عبدالحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق أساتذته فى جامع الزيتونة بتونس وذلك بعد سفره إلى تونس سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) لإتمام دراسته فى جامع الزيتونة .

وأبرز من أخذ عنهم الفكرة السلفية من أساتذة الزيتونة بتونس اثنان هما: الشيخ محمد النخلى القيروانى المتوفي سنة ١٩٢٤، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وقد أشار ابن باديس نفسه إلى تأثير هذين الشخصين عليه فى مقال كتبه فى جريدة البصائر فى عام ١٩٣٦ فقال:

«عرفت الأستاذ الطاهر بن عاشور فى جامع الزيتونة. وهو ثانى الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ فى العلم، والتحقيق فى النظر، والسمو والاتساع فى التفكير، أولهما:

---

(٣٨) انظر كتابات د. عمار طالبى (ابن باديس: حياته وتراثه)، وكتاب الدكتور/تركى رابح عن عبدالحميد ابن باديس، وغيرهما.

(٣٩) راجع نقولنا السابقة من ستودارد، وأرنولد.

العلاَّمة الأستاذ محمد النخلي القيرواني ـ رحمه الله ـ وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور، وكانا كما يشار إليهما بالصفات التى ذكرناها يشار إليهما بالضلال والبدعة، وما هو أكثر من ذلك لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده فى الإصلاح، ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما، وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتونى أن يصرفنى عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة «العالمية»، ووجدت لنفسى الأختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما فى حياتى العلمية أعظم الأثر. على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيدا لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلى»[٤٠].

أما الرافد السلفى الثانى الذى أثر فى مؤسس جمعية العلماء فيتمثل فى تلك السفرة الطويلة إلى المشرق العربى، والتى أدى فيها «فريضة الحج»، واجتمع خلالها بعدد كبير من رجالات الفكر والإصلاح فى العالم العربى من بينهم الشيخ حمدان الونيس، شيخه السابق، والشيخ حسين الهندى العالم السلفي المجاور الذى نصحه بوجوب العودة إلى الجزائر لاحتياجها الشديد إلى علمه وفكره، والشيخ (البشير الابراهيمى) الذى تعرف عليه ابن باديس لأول مرة فى حياته فى المدينة المنورة حيث كان قد هاجر إليها فى حدود عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)، ومنذ ذلك الحين ارتبطا بصداقة متينة كانت خيرا وبركة على الجزائر والحركة الإصلاحية السلفية التى برزت فيما بعد فى حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[٤١]. أى أنه هنا فى قاعدة السلفية الأولى فى العصر الحديث ـ فى المدينة المنورة ـ ثم عقد النية والاتفاق على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية فى الجزائر بين مؤسسيها البشير الابراهيمى، وابن باديس .

مبادئ السلفية وركائز جمعية العلماء:

لعله من الحقائق المقررة أن التشابه ـ بل الاتفاق ـ فى الأسس والمبادئ بين حركتين من حركات البعث والإحياء ـ إنما يقوم دليلا قويا على تأثر اللاحقة بالسابقة.

(٤٠) البصائر عدد (١٦) السنة الأولى.

(٤١) د. تركى رابح: الأصالة ٢٤..

وقد ذكرنا فى صدر بحثنا خلاصة ركائز دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لهذا الغرض.

وفى هذا المقام نورد أهم الركائز التى قامت عليها الحركة الإصلاحية الجزائرية التى عرفت باسم جمعية العلماء، والتى كان لها الفضل فى تحرير الجزائر من الفرنسيين وعودتها إلى الاسلام واللغة العربية.

ومن دراستنا لجمعية العلماء فكراً وعملاً ـ كما تدل على ذلك مصادرها ـ نستطيع أن نلخص الركائز التى قامت عليها فى النقاط التالية:

أولا: إصلاح عقيدة الجزائريين :

فقد كانت جمعية العلماء تركز عملها بصفة عامة على مقاومة الخرافات والبدع التى شوهت عقيدة المسلمين[٤٢]، وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك، سواء العلنى منها أو الخفى.

وقد كان لإمام جمعية العلماء الشيخ ابن باديس دروس يمليها على تلامذته فى (جامع قسنطينة) تحت عنوان «العقائد الاسلامية»، وكان يتبع فى الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته منهج القرآن الكريم فى الاستدلال لا منهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية والإغريقية العقلية، أو أساليب الفقهاء الذين يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم بدل الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[٤٣].

وقد نشرت أجزاء من تلك الدروس بعد وفاة ابن باديس تحت عنوان «العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» وهى تعطينا صورة واضحة عن طريقة جمعية العلماء فى إصلاح العقيدة على النهج السلفى وابن باديس يصف طريقته تلك بأنها «الطريقة المثلى فى الاستدلال على وجود الله وصفاته». فما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلا بالقرآن لأن المؤمن إذا استند فى توحيد الله وإثبات ما يثبت له ونفى ما انتفى عنه لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة[٤٤].

---

(٤٢) انظر كتاب: الشيخ عبدالحميد بن باديس: فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ٢٧٢/٢٧٣. د. رابح تركى.

(٤٣) السابق ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٤٤) انظر مقدمة العقائد الاسلامية للشيخ ابن باديس جمع ونشر محمد صالح رمضان.

ويعلق أحد الكتاب الجزائريين على منهج ابن باديس فى إصلاح عقيدة الجزائريين فيكشف النقاب عن حقيقة تأثره فيها بطريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب يقول :

« هناك ملاحظة ينبغى الإشارة إليها قبل المضى فى بيان ملامح فلسفة ابن باديس، وهي أن الإمام عبدالحميد بن باديس عالم مسلم يعمل فى الدائرة الاسلامية.. وهو كذلك مصلح سائر على نهج المصلحين السلفيين من أتباع المدرسة الاصلاحية السلفية التى ظهرت فى الشرق الاسلامى فى القرن الثامن عشر للميلاد (الثانى عشر للهجرة)، وكانت تنادى بضرورة العودة بالاسلام إلى منابعه الأولى، وهو الكتاب والسنة،بعيداً عن بدع المبتدعين، وخرافات المنحرفين»[٤٥].

وفى رأى ابن باديس ـ وهو رأى الامام بن عبدالوهاب ـ أن العقائد السليمة هى قاعدة الاصلاح فى المجتمع، وهو ينادى بأن حالة التدهور العام التى وصل اليها المسلمون فى القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتطرق الشرك الخفى إليها، وهو يعتبر ذلك « قاعدة الإصلاح » ويقول: « فلنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات »[٤٦].

ثانيا : مقاومة الصوفية والمبتدعة :

ترتبط مقاومة الصوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة ارتباطا وثيقا ، هكذا كان المنهج بالنسبة لحركة الامام ابن عبدالوهاب أو بالنسبة لحركة جمعية العلماء الجزائريين.

فما نكب الأمة فى عقيدتها التى هى مبعث تميزها وفخرها على الملل الأخرى إلا هؤلاء المتصوفة وإخوانهم من سائر المبتدعة.

وكما كان لهؤلاء الصوفية والمبتدعة موقف مشين من دعوة الامام محمد بن عبدالوهاب كان لهم ـ كذلك ـ الموقف نفسه من جمعية العلماء الجزائريين .. بل انهم ارتكبوا فى الجزائر خيانة عظمى أخرى ـ بعد خيانتهم لله ـ هى أنهم والوا فرنسا ووقفوا

(٤٥) د. تركى رابح: مرجع سابق ص ٢٠٠.

(٤٦) انظر المرجع السابق ص ١٢٣ (نقلا عنه) .

معها ضد المسلمين الجزائريين دعاة الاصلاح والتحرير. فلا بدع أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدرا كبيرا من جهود جمعية العلماء، وأن تصبح المعركة معهم سافرة واضحة وضوح المعركة مع المستعمر الفرنسي - ويرى الشيخ (محمد البشير الإبراهيمى) الرائد الثانى لجمعية العلماء ورئيسها بعد ابن باديس - أن مقاومة البدعية والصوفية ورجال الدين الرسميين المنافقين هو « أول يد بيضاء أسدتها الجمعية للجزائر حين قامت بتحرير العقول من الأوهام والضلالات فى الدين والدنيا، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا.. وبذلك التحرير العقلى الذى أساسه - توحيد الله - تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتنابذة والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادئ، وبين الصالح والزائف منها، وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة »[٤٧].

ويكشف « الإبراهيمى » حقيقة بعض المنافقين والمبتدعة الذين تستخدمهم فرنسا لأغراضها بأسلوب يذكرنا بأسلوب الامام محمد بن عبدالوهاب.. فيقول: «فى أيام الحملة الكبرى على الحكومة (الفرنسية) ظهر (هؤلاء) بمظهر مناقض للدين، فكشفوا الستر عن حقيقتهم المستورة، ووقفوا فى صف الحكومة مؤيدين لها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريته، مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكل جهدهم على بقائه بيد حكومة مسيحية تخربه بأيديهم، وتشوه حقائقه بألسنتهم، وتلوث محاريبه ومنابره بضلالتهم.

وقسم أحكامه بفتاويهم، وقد أخذوا فى الزمن الأخير ببعض مظاهر العصر، وتسلحوا ببعض أسلحتهم بإملاء من الحكومة للدفاع عن الباطل، فكونوا جمعية، وأنشأوا مجلة، وجهزوا كتيبة من الكتاب يقودها أعمى - خذلانا من الله ليشترك عاقلهم وسفيههم فى هذه المخزيات، وبحكم العضوية فى الجمعية، والاشتراك فى المجلة، بعد ما كانوا يعملون فرادى، فيمتاز البرئ منهم عن المجرم، ولو فى دائرته الضيقة ومن أهله وجيرانه..

(٤٧) البشير الابراهيمى: عيون البصائر جـ ١ ص ٢٦، ص ٢٧ نشر دار المعارف - القاهرة.

دافعناهم ـ عندما ظهروا بذلك المظهر ـ بالحق فركبوا رؤوسهم، فتسامحنا قليلا إبقاء على حرمة «المحراب والمنبر» التى انتهكوها، فشددوا إبقاء على حرمة الخبزة، فكشفنا عن بعض الحقائق المستورة فلجوا وخاضوا، وثاروا وخاروا، فلما عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالآبدة.. وهى أن الصلاة خلفهم باطلة، لأن إمامتهم باطلة.. لأنهم جواسيس»[٤٨]!!

ولم يكن الإمام عبدالحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ أقل حربا للصوفية والمبتدعة من الشيخ الابراهيمى، بل كان ـ رحمه الله ـ يتهمهم بإفساد الاسلام، وأنهم قد أخذوا أنفسهم بنسك الأعاجم، واخترعوا أعمالا وأوضاعا من عند أنفسهم، وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله زلفى على غرار المشركين قبل البعثة النبوية[٤٩].

يقول ابن باديس : « وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة فى نفسها لأنها ليست من سعى الآخرة الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم يسعاه وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور » كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعا من الربوبية حينما زعموا للعامة الساذجة بأنهم قادرون على المنح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان، وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذى يحتل وطنهم الى التمسح بأعتاب رجال الطرق الصوفية[٥٠] الذين ابتليت بهم الجزائر فى هذه الحقبة من أحقابها الطويلة.

ثالثا : الرجوع إلى القرآن والسنة :

يقول ابن باديس: إن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كانت الا للقرآن وبالقرآن، وأن أئمة الهدى أنفسهم كانوا يدعون لاتباع الكتاب والسنة فهم دعاة اتباع لا

(٤٨) عيون البصائر ١٩٨/١.

(٤٩) د. تركى رابح: مرجع سابق ٢١٣.

(٥٠) المكان السابق، وانظر ص ١٨٥ وينظر تفسير الشيخ ابن باديس لآيات (ومن أراد الآخرة...) وآية (فليحذر الذين يخالفون عن أمره.....) وآية (يأيها الرسل كلوا من الطيبات.... وغيرها.

ابتداع، وما دعوا إلى (التحزب) لأنفسهم.. كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعانا إلى اتباع سبيله فى القيام بالشرائع فى حياتنا العامة والخاصة، وتلك هى سنته التى كان عليها أهل القرن الأول والثانى والثالث، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم عليه الصلاة والسلام[٥١].

رابعا : تحذير الناس من الأحاديث الموضوعة :

دأب مفكرو جمعية العلماء على تفنيد تلك الأحاديث، والآثار الشائعة المنكرة والموضوعة التى شوهت جمال الاسلام.

فإن الإمام ابن باديس ـ رحمه الله ـ يكاد لا يذكر عبارة السنة الا ويحددها بعبارة « الصحيحة الثابتة » وذلك تحذيرا من كل ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويقول فى شرحه للآية:

(إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا)
(الأسراء : ٣٦)

لا يجوز أن نعتمد فى إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبى صلى الله عليه وسلم من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم، فإذا كان الحكم ثابتا بالحديث الصحيح مثل: قيام الليل ثم وجدنا حديثا فى فضل قيام الليل يذكر ثوابا عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذى لم يكن شديدا على وجه الترغيب. ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه وهذا هو معنى قولهم الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال أي: فى ذكر فضائلها المرغبة فيها فقط لا فى أصل ثبوتها:

فما لم يثبت بالدليل الصحيح فى نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف فى ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين»[٥٢].

---

(٥١) انظر تفسيره لآية (ويوم يعض الظالم على يديه).

(٥٢) الأستاذ محمد خليل: نبذة عن حياة الامام ابن باديس: الدعوة السعودية عدد ٦٨٣.

خامسا : محاربة الجمود الفكرى الذى نتج عن إقفال باب الاجتهاد وإحياء التفكير الإسلامى.

يقول ابن باديس ـ رحمه الله ـ ذاكرا فضل اثنين من أساتذته ومربيه له: «وإني لأذكر للأول ـ حمدان الونيس ـ وصية أوصانى بها وعهدا عهد به إليّ. وأذكر أثر ذلك العهد فى نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصانى وشدد على أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي فى ذلك الوقت، وأذكر للثانى ـ محمد النخلي ـ كلمة لا يقل أثرها فى ناحيته العلمية عن أثر تلك الوصية فى ناحيتي العملية، وذلك أني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية فى كلام الله ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن،وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله،فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده فى نفسي من التبرم والقلق فقال لي: (اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة.يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح)،**فوالله** لقد فتح الله بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها »[٥٣].

سادسا : رفض التوسل والاستغاثة، والاعتماد على النفس فى التقرب إلى الله..

فقد كان الشيخ يؤكد فى كل دروسه وكتاباته « أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الانسان من عمل صالح، ينتفع به فى دنياه، ويتقرب به إلى الله فى أخراه.. أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الإسلام، أو يضلهم به بعض المشعوذين فلا عبرة به فى نظر الإسلام الصحيح »[٥٤].

---

(٥٣) المكان السابق.

(٥٤) الأستاذ على مرحوم: لمحات من حياة الشيخ ابن باديس: الأصالة ٢٤ والجدير بالذكر أن الأستاذ على مرحوم من تلامذة ابن باديس وأعضاء جمعية العلماء.

تلك هى أهم الركائز التي قامت عليها جمعية العلماء وقد تكون هناك مبادئ أخرى.. لكنها يمكن أن تندرج تحت هذه الركائز، كما أن طريقة عرض الأسس التى قامت عليها دعوة جمعية العلماء الجزائريين، قد تختلف من مفكر لآخر، وكذلك الأمر بالنسبة لدعوة الامام محمد بن عبدالوهاب .. لكن المضمون فى نهاية الأمر متفق - تمام الاتفاق - فى الحركتين .

وعلى سبيل المثال: فإن أحد المفكرين الجزائريين يذهب إلى أن دعوة الشيخ ابن باديس، التي هي دعوة الجمعية ركزت على ثلاثة أسس:

١ - إصلاح عقلية الجزائريين .
٢ - إصلاح عقيدة الجزائريين .
٣ - إصلاح أخلاق الجزائريين[٥٥].

لكننا عند التحليل العلمى للمضمون، بل عند قراءتنا لتفاصيل هذه الإصلاحات نجدها لا تخرج عما ذكرناه.. وليس الخلاف إلا فى أسلوب العرض.

كما أن من الجلي أن هذه الركائز هى - تماما - الركائز نفسها التي قامت عليها حركة الامام محمد بن عبدالوهاب، بل إننى لأرى أن التزام جمعية العلماء بهذه الركائز كان التزاما يقترب من التزام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وبفضل التزام مدرسة العروة الوثقى، وربما يفضل مدرسة المنار ورشيد رضا أيضا، وليس هنا مجال تفصيل ذلك .

تشابه فى الموضوع والمنهج والأسلوب:

وهناك جانب آخر - إلى جانب الاتفاق فى الركائز - يدلنا أيضا على مدى توافق الحركتين، وهو جانب الاتفاق فى الكتابة موضوعا ومنهجا وأسلوبا.

(٥٥) ابن باديس ونشأة الحركة الاصلاحية فى الجزائر. د. تركى رابح مجلة الأصالة عدد ٢٤.

ولأن هذا المقام قد لا يتسع لنقل نصوص وفقرات كاملة من كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وكتابات زعماء جمعية العلماء الجزائريين كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الابراهيمى فنحن - إلى جانب الركائز التى ذكرناها والتى توضح الاتفاق التام بين الدعوتين - نشير إلى أنه من دواعى التأكيد على تأثر جمعية العلماء الجزائريين بدعوة الشيخ ابن عبدالوهاب أن كثيرا من كتابات الشيخ ابن باديس والشيخ الابراهيمى تبدو للقارئ وكأنها ترجمة أمينة لبعض كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وتلامذته وعلى رأسهم مدرسة العروة الوثقى والمنار.

أما اتفاق الكتابات فى الخصائص والسمات، فهى حقيقة لا شك فيها :

فإن القوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة غير الهيابة التى تبدو فى كتابات الامام محمد بن عبدالوهاب، ولا سيا فى رسائله وخطبه نجدها - كذلك - فى كتابات مدرسة جمعية العلماء الجزائريين.

وإن الاعتماد على الدليل القوى المباشر الواضح المستقى من كتاب الله وسنة نبيه وسلوك الأئمة ، نجده خاصة تنتظم كتابات الامام ابن عبدالوهاب وجمعية العلماء الجزائريين، ممثلة فى رائديها: «عبدالحميد بن باديس» و «البشير الابراهيمى»، بل إن الموضوعات تبدو وكأنها تدور فى فلك واحد وتعالج أوضاعا واحدة مع أن الظروف الزمانية كانت مختلفة .

وقد يرد على الخاطر أن «الأعداء» كانوا مختلفين - أيضا - ولا سيا الاستعمار الفرنسى، كان مسيطرا على الجزائر والمتوقع أن تحتل مقاومته درجة الاهتمام الأولى.. لكن الحقيقة أن مدرسة جمعية العلماء لم تقع - إلى حد كبير - فى هذا الخطأ الحضارى، بل إنها أدركت أن الاستعمار إنما هو نتيجة وليس العلة أو السبب، وإنما السبب هو ما أصاب كيان المسلم فى عقيدته وفكره، والمنهج الصحيح هو علاج « العلة » أولا.. ومن هنا صرفت أكثر جهودها فى مقاومة «البدع والخرافات» وفى إحياء دين الأمة ولغتها، دون أن تغفل مقاومة الاستعمار كذلك.

ويضاف إلى هذه الخصائص - سمة أخرى واضحة فى كتابات الإمام محمد بن عبدالوهاب، ومدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.. هذه السمة: نستطيع أن نطلق عليها: عدم المداراة أو التكلف، بل المواجهة الصريحة بالألفاظ القوية التى لا تحتمل تأويلا ولا لبسا.. حتى وإن أغضب ذلك بعض الناس، الذين يريدون المداراة والتحايل منهجا للعمل الإسلامى.

ونورد فيما يلي بعض نصوص من كتابة الشيخ ابن عبدالوهاب، وكتابة مدرسة جمعية العلماء الجزائريين، لنستدل بمقارنتها على صدق ما استنتجناه من اتفاق بين الحركتين فى المنهج والموضوع والأسلوب .

يقول الامام محمد بن عبدالوهاب: « ولست ولله الحمد أذهب الى مذهب صوفى أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم (...) وغير خاف ما أحدث الناس فى دينهم من الحوادث وما خالفوا فيه طريق سلفهم، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل[٥٦].

وفى رسالته إلى محمد بن فارس يقول: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة: الأول الشرك فى عبادة الله وحده لا شريك له، الثانى: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك فى كفرهم. الرابع: من اعتقد أن غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه. الخامس: من أبغض شيئا مما جاء به رسول الله. السادس: من استهزأ بشئ من دين الله أو ثوابه أو عقابه. السابع: السحر ومنه الصرف والعطف. الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. التاسع: ومن اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه صلى الله عليه وسلم، وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى. العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به»[٥٧].

(٥٦) من رسالته السابعة والثلاثين: الرسائل الشخصية: القسم الخامس (طبع جامعة الامام) بتصرف.

(٥٧) بتصرف من المرجع السابق (رسالة) ٣٢.

ومن رسالته إلى أهل المغرب... بعد أن ذكر بعض آيات القرآن الآمرة بوجوب اتباع سبيل الله وما أنزل سبحانه...قال:

«إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه إلى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التى لايقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصح إلا لله، وصرف شئ من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا»[٥٨].

ونكتفى بهذه النقول من تراث الامام محمد بن عبدالوهاب محيلين القارئ إلى تراثه الضخم، ونذهب لنقتبس بعض النقول ـ للمقارنة ـ من تراث الشيخ عبدالحميد بن باديس إمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

يقول الشيخ ابن باديس عند شرحه[٥٩] لقوله تعالى:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا .. الآيات» (سورة الفرقان ...)

يقول : كما أن علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام التى جاء بها من عند الله تعالى وهى الإسلام ـ كذلك علينا أن نتبع سبيله فى القيام بشرائع الإسلام علما وعملا فى أبواب العبادات،وأحكام المعاملات،وفى تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة،وهذه هى سنته التى كان عليها، وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثانى من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين،تلك القرون المشهود لها

(٥٨) الرسالة رقم ٢٧ المرجع السابق.

(٥٩) يلاحظ أن تفسير ابن باديس للقرآن كان فى أصله دروسا ألقاها فى الجامع الأخضر بقسنطينة بالجزائر.

بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم. وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع فى ضلال الكفر- كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان عن تفريطه، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة إذ كل منهما قد ظلم نفسه وفرط فى سبيل نجاته،فالآية وإن كانت فى الكافر والمشرك فهى تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع .

ويقول عند شرحه الآية:

« وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ». (الأسراء : ١٩)

يقول: من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها إلى الله مثلما اخترع المشركون عندها الأوثان بدعائها والذبح عبادة والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له، وإنما يعبدونها كما قالوا لتقربهم إلى الله زلفى، وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة فى نفسها، لأنها ليست من سعي الآخرة الذى كان يسعاه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده - فساعيها موزور غير مشكور.

ويقول عند شرحه لقوله تعالى:

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ». (الاسراء : ٣٦)

يقول: إن أدلة العقائد مبسوطة كلها فى القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير وأدلة الأحكام وأصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم الذى أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم،فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون فى كل عقيدة من عقائده الدينية على علم. ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا فى كتاب الله فهو الذى يجب على أهل العلم أن يرجعوا فى تعليم العقائد

المسلمين إليه. أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم فى أشد الحاجة إليه. وقد كان من نتيجة هذا ما نراه فى عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغى لأهل العلم أيضا - إذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم،ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائما على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب،ويكون لفتاواهم ومواعظهم (رسوخ فى القلوب وأثر فى النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون)[٦٠].

ومن الغريب - إلى جانب هذه النصوص التى تبين الاتفاق فى الموضوع والمنهج والأسلوب بين الحركتين - أن أول جريدة أنشأها ابن باديس كان اسمها (المنتقد).وكانت جريدة تكاد تكون متخصصة فى (انتقاد) الصوفية، وقد أوقفتها فرنسا عام ١٩٢٥م بعد ثمانية عشر عددا من صدورها، فجعلتها جريدة «الشهاب».. فلما قامت الجمعية رسميا سنة (١٩٣١م) (١٣٤٩هـ) كان أول جريدة أصدرتها هى «السنة المحمدية» سنة (١٩٣٣م) (١٣٥١هـ) ثم تلتها جريدة «الشريعة المطهرة» بعد أن أغلقت فرنسا الجريدة الأولى، ثم «الصراط السوى» ثم «البصائر».

أفلا تؤكد هذه الجرائد والمجلات - حتى من مجرد عناوينها - ذلك الاتفاق فى «الموضوع» على الأقل !!

أما من ناحية «المنهج والأسلوب» فنستطيع أن نلخصه فى جملة واحدة ... إنه «المنهج القرآنى».

فإن ابن باديس كان على منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب - يؤمن إيمانا لا حدود له بدور القرآن الكريم فى تكوين الجيل المنشود على غرار الجيل الذى كونه القرآن فى العصور الأولى للإسلام، يقول ابن باديس فى مجلة الشهاب: «فإننا نربى - والحمد لله

(٦٠) راجع: آثار ابن باديس لمؤلفه د/عمار الطالبى ١، ٢.

تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم، وفى كل يوم، وغايتنا التى ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها. وفى سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها».

أما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها الشيخ الابراهيمى بقوله: «كانت الطريقة التى اتفقنا عليها أنا وابن باديس فى اجتماعنا - بالمدينة المنورة - فى تربية النشء هى ألا نتوسع له فى العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة فى الجيش الذى أعددناه من تلامذتنا»(٦١).

وبعد:

فإنى أعتقد أني قدمت بين يدى «قضية عادلة» أدلة كثيرة، قد تكون فى غنى عنها، لكنى قدمتها خضوعا للمنهج العلمي الذى نتعامل به مع الآخرين.

أما يقينى - الذى أومن به - فهو أن الحضارة الإسلامية - كل لا يتجزأ، حتى وان اختلفت ألوانها وظلالها. وبالتالى.. فإن موجاتها الموجبة والسالبة تتحرك وتتفاعل متبادلة التأثير والتأثر، متخطية - فى الوقت نفسه - كل حواجز السياسة وكل ضغوط الواقع، وكل الأسوار المصطنعة الطارئة .

إنها حضارة «واحدة» تستمد من عقيدة «التوحيد» كيانها الواحد المتعدد العطاء .. وهذا ما أومن به !!

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (٦٢).

صدق الله العظيم.

---

(٦١) نقلا عن تركى رابح: الأصالة ٢٤.

(٦٢) سورة ابراهيم - ٢٤، ٢٥.

مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية